زهير أبو سعد

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author Zohir Abu Saad.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الكاتب زهير أبو سعد.

عنوان الكتاب: خالية
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
تدقيق لغوي: عبد الله تحسين علي
مقدمة: شروق المسالخي

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع : 2018/7437
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

خالية

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب: زهير أبوسعد

العنوان: خالية

تحتار الأقلام كيف تغزل الكلمات؟ وكيف تخط الحروف عندما يكون المكتوب عنها، إنها هي التي لا تحلو الحياة من دونها ولا لوجودنا معنى لولاها.....

إنه المبدع زهير أخذنا معه برحلة إلى العراق نحو معالم الأمومة العراقية إلى متاحف العطاء، تتنقل خطواتنا في ممرات الحنين وتجول خطواتنا في أزقة التعب نتتبع بأعيننا لوحات التعب المرسومة على جدران وجهها ملونة بألوان تجاعيد أنهكتها ريشة السنوات من أجلهم، ليفنيها الحب بمهجة قلبها، أطفالها الذين اختصروا جمال الدنيا بعينها. رواية مزجت بين حياة الأم وواقعية الأنثى التي تنمو بنيتها في اضطهاد أسري أجبرت على العيش تحت سقفه لتقتات ذل محصود من تقاليد نتنة خمرها الجهل في عقولهم ليمارسوا سكرتهم على هذه الكائن الضعيف، تنام على أسرة القسوة بين شراشف العنف وبين أيادي بشر لا ترحم، فقط

لذنبها أن ولدت أنثى وأنجبت أنثى، فإن في قانون بعض البيوت أن الزوجات لا تنجب إلا ذكور أما جنساً آخر فهو ممنوع قطعاً. أبكانا هذا الظلم الذي لا زال إلى يومنا هذا يقترفه المجرمون في حق النساء، لكن الكاتب زهير واسانا بإبنة تلك الأم التي تعبت في تربيتها (الدكتورة فاطمة) مع ذلك الرجل الطيب، والتي أبت أن تضهد إبنتها كما عانت هي وأمها وأخواتها جور ذلك الأب الذي نال حدفه أثر ثأر الأنوثة نفسها. تلك المظلومة الأم الحنونة التي جعلها الله درة وضاءة لسبيل أطفالها وسند لهم، نخلة عراقية غرست في دار ترعرع أهلها تحت فيئها ونمت عظامهم من ثمرها، وما إن استطاعوا على المشي هجروها لتكون خالية وحيدة تحت ضوء الشمس عطشة لهم، تحدق في أثاث الفراق، في غرف البيت وتسأل إشتياقها.....

أين هم؟ هل رحلوا؟

هل خانوا عهد الأمومة؟

لا أحد يجيبها سوى قرع الباب.....

شروق المسالخي

إهداء ..

إلى العراق

خالية ..

أُراقبُ مَا تَبقى من حَياة ..

أَقتَاتُ على المَاضي كَي أَبقى على قَيد الشَوق ..

مُسترسلٌ بي الحَنينُ مَع صَوت الرَاديو الذي اشتراهُ لي زَوجي الحَاج : حُسين الشمري . أَبو عَباس .

احَترتُ آنذاكَ في أَي مَكَان أضَعهُ ، بَدأتُ أفتشُ عن مَكَانٍ يَليقُ بهَذا الجهاز النادر الذي يُصدر لأَسماعنَا ما لذَ و طَاب من نَفحات لكَأنهَا من الأَمس ، إن سنَ هَذا الجهَاز يُقارب العشرينَ عام ، عندما كَانت أكبرُ أَحلامنَا أن نَشتري "كيلو لحم" من الضأن ونُطعمهُ لأولادنَا ، سَقطت كُل الأَحلام في رحَابِ صَوت نَاظم الغَزالي وزوجته سَليمة مُراد و سَعدون الجَابر، آه من سَعدون الجَابر عندما سمعتُه لأَول مَرة و هُوَ يَشدو :

ربيتَك صغيرون ، حسن لَيش انكرتني ..

يا حسن و عيونك الوسعة ، حسن سَهماً صبتني ! ..

بينَ الجُرف و الماي ، حسن بَطة و صدتني ..

كُنتُ أُخيطُ ثَوباً لفاطمة في سَاحة الدَار ، أُجَالسُ الهَواء الطَلق و الفُسحة السمَاوية مع كُوب من الشاي المُخدر بدثار من قُماش و كَقطعة من الكليجة ، عَفواً لم أَسمعكَ!..

من فاطمة !! ..

آه يُمَّة شوكت تُردلنَا ذيچ الأَيام !! ..

هَذه فَاطمة ابنتي الكُبرى و قطعةٌ من قَلبي و ريحانةُ الرُوح و فرحة الدَار ، كُنَا نَرفعُ سَقفَ الدَار بالطين المَجبول بالقَش و أَملأُ السَطل الكَبير لأَحملهُ إلى أَبو حسين كي يُدثرنَا سقفٌ وَاحد ، و أَما بَطني فقد رَفع صَدري كَما رَفع زَوجي البَيت بأَعمدة من خَشَب النَخيل ، تُسعفني الذَاكرة بصوت جَارتي أُم عُمر :

ـ سُلطَانة ، شبيچ مَا تردين ! ..

يُراقبُهَا زَوجي من السُلم الخَشَبي المُعلق بَين السَقف و الأَرض و يَبتسم ، كَانت أُمرأةً ثبطة خَشَنةً مُتورمة القَدَمينِ تَجرُ ثقلها بساقين ثَخينتَين تتكفئُ على الرمَال حَافية كَأنهَا فرس نهر ، تغطي جسَدهَا المُترهل بعَباءة سَوداء تَكسُوهَا من رَأسها إلى أَخمص قَدميهَا ، و قد رُقعت العَباءة بثَلاث رُقعٍ ظَهرَ منهَا عَيب الخَيط الذي سَتر الثُقوب ، تَحملُ على

رَأسهَا سَلة من ورق النَخيل صَنعتها بَيدهَا على ضفاف دجلة بعد كُل غَسيلٍ لثياب أهل بيتهَا ، كَان في العيون بَريقٌ يَشتعلُ كُلمَا اقتَرب الرَحيل ، لم أَتصور أن أَفقدَ أعز جَارة لي ، صَاحبة الوجه البَشُوش و اليد السميكة المفتولة كَأنهَا عُنقُ جَميل يُرحبُ بهَا أَو حسين :

ـ يا هَلا بيچ أُم عُمر تفضلي خيتي !! ..

تَقفُ في مَكانهَا ، يُسمرها الخَجلُ أرضاً ، يَبتلعُهَا العَرقُ من كُل حَدب و صَوب ، وتَغرقُ في حَجمهَا المُترهل ، تُنزلُ سَلة القَشِ من رَأسهَا ، فَلا تتعجب إن كَانَ وَزنُ تلكَ السَلة مَا يُقاربُ أَربعينَ كيلو ، تَسيرُ كُل يَوم عشرين كيلو إلى خارج المَدينة كَي تَشتري الخُضَار الطازجة من المَزارع ، و تَحملُهَا عائدة بكُل ثقلهَا إلى البَيت قد ألجمها العَرقُ و التَعب..

كَانت أُمهات ذَاكَ الزمان عن عَشر رجَال ..

تُزيلُ النَومَ من وَجههَا قبل أَن يَصيحَ الفَجرُ إلى أقرب بئر و تَحملُ الماءَ على رَأسها وفي كلتَا يديها بل و في الظَلام الدَامس ، تُخرجُ الطحين من كيسه الخَاص و تَعجنُ بساعدَيهَا أكثر من سَاعة و هي تُحركهُ حتى يتماسك ، تُكسر

الحَطب و تَحشو التَنور بالأغصَان و قطع الخَشَب ، تُشعلهُ حَتى تَخرُجَ نَار منهُ كَنار الله المُوقدة ، فَلقد كَانت تَنتقمُ لنفسها بالعَمل الشَاق ، تؤنبُ ضَميرهَا بالجُهد ، تُريد أن تَتَناسَى بالشَقاء ، لَقد وُلدت فوقَ رمَال الرجَالِ التي لا تَرحمُ بعَضهَا البَعض ، فَكيفَ بهَا ..

تُمسكُ السَاطُورَ بيدهَا وتَسنُّهُ بمبردٍ خَشن ثُمَ تُحميه على النار حَتى تَحمرُ أوداجهُ ، ثمَ تطرقهُ بمطرقة من حَديد بكُل قواهَا ، يتَدفقُ منهَا العَرق من كُل مسامات جَسدَها ، يسيلُ كَسَيل مُنجرف بينَ ثدييهَا ، يَبتلعُ وَجهها كَي يَغسل تَعاستهَا ، يَزحفُ إلى فَخذَيهَا بلا حَياء و خَجل ، تَشعرُ بحكة تَنتابُهَا و تُدغدغُ أَحشاءهَا ، لا تَلتفت لنَزعَة النَشوة التي تَجلدهَا ، فَقد تَحررت من جَسدهَا مُذ أن أضحت خَادمة لرجُل يأتيها لَيلاً يُجردُهَا نَومهَا و يحييهَا بالقُبل ، كَانت تَقولُ في نَفسها : إنهُ ليسَ هُوَ في صَباح اليَوم الثَاني ..

إنهُ رَجل آخر ، رَجُل لم تُعلمهُ أُمهُ أن يَنطق بكَلمة أُحبك ، هُنَا الحُبُ عَورة و رَذيلة في زَمن الرَذيلة ، تَعيشُ تلكَ الأُنثَى أو تَموت و لا تَسمعُهَا و إن سَمعتهَا في تَكون مَلغومة و خَلفهَا ألف حجاب كَي لا يسمعهَا الأَنسُ و الجَان ، في هَذه

البَلاد من هَذا الزَمان الذي لم تَصلهُ شَاشَات التلفاز و لا الهَواتف الذَكية النَقالة و لا حتى لم يُشاهدوا البُوتوكاز ، كَانَ الحُبُ يَنضجُ في الظَلام فقط ، عندما تَنامُ عيون الإنس و الجَان و تَبقى عَينُ الله يَقظة لا تنَام و لا تَأُخذهَا مَسٌ و لا تَعب ، يَسبحُ كَالتمساح يَسيلُ لُعَابهُ أرضاً يَتجسسُ عن رَائحة جَسد خَال من العطر ، فَارغ من الرَاحة ، مَحمومٍ بالهُموم ، مبَحوحٍ بالصَمت ، قدَ ألجمهُ الضياعُ ، يتَسللُ من موارب الباب يَتجسسُ من شَق عَينَيه التي تُشبهُ عُيون بنات آوى ، يتحسسُ شَخير زَوجةٍ قد بيعت في سُوق المُهور بالذَهب إلى رَجُل سَلبَ منهَا كُلَ مَا لَديهَا من ذَهب ، من أَجل أن يُسندَ قواهُ أمَامَ الرجَال و يَستورد لهُ طفلاً يَحملُ اسمهُ بعَد مَوته من عَالم الغَيب ، طفلاً بالحَلال و بالشَرع و تَحتَ شَرف التَقاليد و الأَعراف ، يتَلمسُ الجَسد المُنهك بمخالبه ، يُحبُ الجُلود المُقوسة ، تُعجبهُ الظُهور المُنحنية ، تَستَهويه العيون المُغمى عَليهَا من التَعب ، إنهَا في نَظرهِ حاجةٌ إذا فُقدت الحَاجة ، و هو في نَظرها لص أجسَادٍ ونهود .. حَقيرة تلكَ الأَيام .

تَسألني الشَوارع وين الأحباب ..!
و ين اليوكفون بعتبة الباب ..!
أبشَرك سَلموني لحلج الذياب ..
نسوا أنا چنت في يُوم خلهُم ..
ما ظَلي أهل حَتى أرجعلهُم ..
أنا حَباب كَلبي رَحلوا كُلهُم ..
بالغُربة و عَليَّ جُروحي صَاحت ..
و حرت مَدري أشَدهُم مَدري أَفلهُم .. !
مَا ظَلي أَهل مَا ظَلي حَباب ..
و أَعز النَاس نَامو جُوا التراب ..
بقى بس الجرح و الجُرح ما طَاب ..
و ين يلي يُقفولي و اوقَفلُهم ..!
مَا ظَلي أهل حَتى أرجعلهُم .
خَضير هادي
خَالية ..
أكُفنُ حُزني بمحطات المَنايا ، أتوسَد ظل العَائدينَ في سرداب العَابرين ، أَحملُ وحدتي كحقائبهم المَخنوقة بالذكريات ، أُقلبُ وُجوهَهُم كَمن فَقدَ مفاتيح بَيته ، أُنقبُ بينَ

ضَحَكاتهم عن بَصيص أمل ، ذَلكَ الأَملُ الذي أَعيشُ على وُقوده مذ أن أَضحت آبارنَا تَضخُ في مَخازن عَدونَا ، من ذَلكَ الحَين و أنَا أَنتظرُهم ، أنا التي كُنتُ أطهو طعامَ العشَاء على قِدر القَدر ، أسخو بالحَطب و المَرق حتى يُطهى الطعامُ جَيداً ، كَانَ الدُخانُ يَتصَاعد من سَاحَة الدَار ليُعانق السَماء ، بصَخب أبنائي الأربعة و بناتي الستة أحيا و تحيا بيَّ الرُوح ، كَأنها كذبة مُستعجلة تَخطت أعمارنا كقطار جارف أنهكتهُ المحطات ، و سارت الذكريات تَلطُم بي حتى أردتني عَجوزاً مُنهكة من التَنقيب في من أتى و عاد ..

كَانَت القُدورُ تُملأُ بما لذَّ و طَاب ، يتكفكفُ منها الدَسم و الخُضَار ، و أخبزُ الخُبزَ في التَنور الذي صَنعتهُ بَيدي في زَاوية الدَار ، و الآن ، بدت القُدورُ كَأنها أعجازُ نَخل خاوية ، و إن طَهوتُ يُبادرُني السُؤال :

ـ المَنْ أطبُخ ! ..

آمنتُ بالوَاحد الأحد الذي طهى لنا أقدارنا و أعدها للحَياة ، آمنتُ بالجُدران التي تَأبى إلا و أن تَستُر عَلى ما تَبقى لي من شَوق ، هَل الجُدرانُ تبوحُ لصَاحبهَا إن هَاجت الأَشواق!..

سَوف أَسألُ عُكَازَتي التي لازَمتني ما يُقاربُ عَشرة أَعوامٍ عجافٍ من الوَحدة ، قَطعتُ غُصنها من شَجرة التُوت التي زَرعها ابني عَباس في سنهِ العشرين و لأن الكَفَ كَانت صَادقة و الأرض أشَدُ صدقاً ، فقد نَبتت حَتى تَسَلقت بأوراقهَا الخَضراء سَطح المنَزل ، و أضحى فَيئها حجاباً بَيني و بين السَمَاء ، تسدُ وحدتي فَاكهتها و أرفعُ سلالاهَا حَاملةً بهَا على رَأسي مَقام العَباس كَنذر أن يَحفظَ اللهُ لي أَبنائي ، فدوة لآل البَيت ، أَتُراهُ ابني عَباس خَانَ شَجرة التُوت و هَاجر و لن يَعود !! ..

الذي أَحيا شَجرة و تَركهَا للذَاكرة ، سَيتُركُ أُمهُ و الذَاكرة ، طَردتُ ذَاكَ الوهنُ من رَأسي فأنَا التي أنشَأتهُ و عقَدتُ قَلبهُ بحُب أَهله ، دَائماً كنتُ أَسمعها منهُ :

ـ أنَا مَا احب آكل بَرة البيت ..

هَا هُوَ العَام الخَامس و هُوَ خَارج البَيت ، كَأنَ ذَاكَ اليَوم وشمٌ قد وُشمَ في القَلب كَي تَراهُ الذَاكرة كُلَما استيقظت الحواس من النَوم ، تَزحفُ إلى تعاسَتي تَطرُقُ وحدتي أفتحُ لهَا الباب ، أَرى عباس في غُرفته وَاقفاً مُستَعجلاً ينقُلُ ثَيابهُ من الخزانَة إلى حَقيبته الكَبيرة ، مُستَعجلاً يُريد أن يَسرقَ

فَرحتي من جَيب صَدري ، يُريدُ أن يَحمل مَعهُ قَلبي حَيثُ يَحطُ به القَدر ، يُريد سلب لَمعةَ عَيني بدموع تُسكبُ في سَواقي الخَدِ سَكباً ، من شقِّ بَاب الذَاكرة أتجسسُ عَليه كَأنها نَظرة أخيرة قَبلَ الوَداع ، أُريدُ أن أُشبع قَلبي و عَيناي برؤياهُ قَبل أن يُدير لي ظَهرهُ ، تتشَرذَقُ في الحَلق دمعة و أسقُطُ خَلفَ البَاب مُتحشرجة بألم السَمَاوات و الأرض بَاكَية كَأنما سَقطتُ على أَعتاب العَباس مُتألمة :

ـ يُمَّة ..

يُمسكُ بَكفي يُقبلهَا من ظَاهرها و بَاطنها ، يشتمُ رَاحتيهَا و يَزيدُ فَوق الدَمع ناراً ، يَمسحُ دموعي و دُموعه من بعد أن افترشَت وَجنتاهُ :

ـ والعباس شكم سنة وأرجعلچ يُمَّة ..

أرضاً نَبكي و نتَباكى على ما أهدانا إياهُ الفراق من جراح ، نَقتسمُ الوَجع سَواسية كَأسنان المشط ، يُمشطنا الألم كما يَحلو لهُ و يَحلو لنا الصَمت و الانتظار على باب الدَار ، أُجالسُ ظل قَنطرة البَيت كُل عَصر لألمح عَباس من بعيد لَيقول لي :

ـ أنا رجَعت يُمَّة ..

عباس لا يَكذَب أنَا أعرفهُ جَيداً سَيعود لا مَحَالة ، سَوفَ تشهدُ عَليَّ الأشَواق عند الله يَوم القَيامة كم كُنتُ أَحترق و أتخفى بعباءتي عندما أعلم بأنَ أحد أبنَاء البَلد عَاد من السَفر ! ، و مع أنَني لا أُحبُ السَفر فَروحي دَائماً في سَفر تَحوم العَالم و تُحلقُ و تَهبطُ و تَركبُ القطارات ، و تَبحثُ عن مأوى لهَا بجانب حَديقة بالقُرب من السَعادة ، عندَ أول صُندوق بَريد لأحد أبنائي كُتبَ عَليه مكتُوب وَرقي فيها رَائحتي ، عَبق التُمن غَفوة خُبز التَنور الشَاي المُخمر كعك الكليجة ، و اليَوم تَتهافتُ على شَيبتي الأسئلة عندما أقفُ في مطبخي هائمة :

ـ المن أطبُخ ! ..

متى سأُشَفى من خناجر الغَصَات التي مزَقت أحشَائي و جعلتني كعصف مأكول ! ، إلى متى سَأتلوى حافية على عَتبة الانتظار ! ..

ـ يُمَّة وينكُم ! ..

يُمَة لو رُحتي أظل ابلايه خيمة ..
يا حَنينة أو ساعة أفراكچ أليمة ..
يا هَضيمة و يا هَضيمة و يا هَضيمة ..
بعدچ اتكَول الخَلكَـ زَينب يَتَيمة ..
يُمَّة لَحظة وَداع أو سَفر ..
يُمَّة ضَلعچ أو قلبي انكسر ..
يُمَّمة مني شَيريد الدَهر ..
يُمَّة ..
باسم الكَربلائي .
خَالية ..
و مَهجورةٌ في عَبثية هَذا الكَون كَبئر خَاو جفَت منابعهُ ، مُتصحرةٌ أوردَةُ الروح لم يَهطُل عَليهَا المَطرُ مُنذُ الأزَل ، تَجرُ الخُطى أَثقالهَا قَاطعة جَحافل المَدى ، أُكفنُ مَا تَسترهُ النَفسُ تَحتَ رُخام صَدري ، و أَدفنُ العَويل بظلِّ القَلب حتى لا يُكشَفُ المَستور ، و ليُكشَف المَستور و ليذهبوا بي إلى القُبور ، و ما بَقي من حَياة سَأتركُهَا لأَهل الغَرور ..
مَهجورةٌ أنَا ، أجولُ بعَينَين غَائرتَين في زَوايا الدَار أبحثُ عن كَاظم ، لقد خِطتُ لهُ ثَوباً زَيتياً من القُماش النَفيس ،

سَهرتُ لَيالٍ تَحتَ ضَوء الشَمعة كَي يَظهرَ أكثرهُم أناقَة بينَ أهل الحَي ، يختلي بمُفرده على سَطح البَيت بعيداً عنا ، كَان عَلقة من رُوحي يَكسُوهُ الهُدوء و الهَيبة منذُ الصغر ، عاشُ معنا سنيناً طوال فلم أسمع منهُ تَذمُراً أو شَكوى ، يَرفُض أن يَأخُذا مَصروفهُ منذُ أن نَبتَ لهُ عَقل الرجال ، فَقد غَلبت فطنتهُ سنهُ و نمى مع جنبه الأيمن ثَلاثَ شَعرات بيضاء صحتُ لَيلتها :

ـ عزاااا ..

المسكين في سن الثَامنة عَشر كَان يفقهُ مَا بي من دَهشة و صَدمة حتى لو لم أتكلم ، يشَعرُ بمَا يَجولُ بخاطري ، يَقرأُ وجعي قبل أن أشي به ، يَتألم لألمي حتى أصبحتُ أُخبئ الألم كما أسترُ جَسَدي كَي لا يَراني ، أكنتُ أخشَاهُ و أخشَى أن يَكشَف ما بي من سر :

ـ شبيج يُمَّة !! ..

يَجري إلى سَاحة الدَار ، بجَانب حَوض البازلاء الذي زَرعتهُ بيدي تتربعُ جَرة كَبيرة في جَوفها ماءً زُلال كماء زَمزم ، يُمسكُ كُوب النُحاس من فَوق الجرة و يَغرفها بالماء و يُسرع إلي :

ـ اشربي يُمَّة ..

يُلقي بنظراته في نَافورة عَينَاي يتَصببُ منهُمَا رُوحاً قد فَقدتُهَا ، أُنقبُ بَينَ عيون الخَلق عن نَظرةِ حَنان كَنَظرة كَاظم ، إلا أن كَاظم أَهداني نيران شَوق لا تَنطفئُ إلا برؤياهُ ، أَشربُ من كَفه و أَتضَلعُ :

ـ يا بعد عُيوني يا يُمَّة ، عَافيات ..

طَوى الزمَانُ تَلكَ العيون خَارجَ البلاد سَعياً في الرَزق ، و تَأبى الرُوح أن تَجد مَسكناً لهَا إلا مَسَكن الحَبيب الأول ، احدودَب الظَهر و تَراخَى النَظر و ثَقُلَ اللسَان و اتخَذت الأصابع سُبحة يُصَلى بها على مُحمد و آل مُحمد رَافعة بها الصَلوات إلى رَب الأرض و السَماوات كَي يَرُد لَي أبنائي سَالمين غَانمين ، و جاورتُ الدُرج الذي تتدفقُ منهُ الأدويةُ من بَعد أعوام من الشَقاء و البَلاء ..

أنسَى أن أُحضرَ معي ماءً كَي ابتلعَ دوَائي ، تتشَردقُ في الجَوف غَصَة المهمومة ، كَي تَجلدني الذَاكرة بصَوت كَاظم و ولهِهِ و لهَفتهِ و خَشيتهِ عَليَّ :

ـ شبَيج يُمَّة ، تَريدين تَشَربين !!

نعم أُريد أن أرتوي من رُؤياكَ ، أُريدُ مَلائكةَ اللهَفة حَولي تَهفو و تتدَافع بكُل شَوق ، أُريد ألسنةَ الشَوق تحملُ لي كَأسَ ماء ، أريد دفء قَلب يَضَعُ فَي فمي دواء ، أُريد أن أصيح في كهف عُزلتي :

ـ الله يَرحم أيام الكَعدات الحَلوة ..

عقدت مع هَشَاشَتي جلسَة صَراحةٍ في رحاب النَفس اللواحة، فَتحتُ حدَيثاً مُطولاً معها ، أمسَكتني لكي أَقفَ على قَدمي ، عَجوزٌ كهلٌ هدني الزمانُ هداً ، فلا أصلحُ للحَياة و لا للتُراب ، تُناديني هشَاشَتي أن قفي هَيا ..

أسيرُ خَلفهَا كَالمُتهاذية على كتفي المَوت ، أترنحُ في المَمر الذي يَأخُذني إلى غُرفةَ كَاظم ، أستَعين بعُكازي الخَشَبي على بُعد المشوار ، هَذا الممر بالذَات لي عندهُ دَين كَبير و إلى الآن لم يُسَد هُذا الدَين ، كم من صَوت ناديتُ بهم :

ـ يا ويلاد تعالو تريكَو ..

جُلُهم يَتضَاحكون و تتعالى أصواتُهم في فناء المَمَر إلا الصَوتُ الذي لطالما أحببتُ أن يَعلو ، ذَاكَ الصَوت الذي لا يُريدُ أن يَعلو صَوتاً إنما يَعلو فعلاً و صفة ، وَاقفٌ يُراقبُني خَلفَ المَطبخ :

ـ يُمَّة شبيج ! ..

كَلماتٌ كالسَيفِ بل كَالسر تقطعُ صَدرهُ يُريد أن يَبوحَ بهَا، لكنهُ يَخشَى من أن تلتقطها آذان إخوانه :

ـ أريد أصَير طَيار يُمَّة ..

بُكل حَنَان السَمَاء ، بجُل شَوق الأحضَان ، بهُبوط قوة المَطَر ، بهبوب مَواسم الخَير أُلقي مَا بيدي من أدوات طَهي و أَضمُهُ :

ـ يمُّة كَاظم رَاح تَصير طَيار يَا بعد أُمكْ ..

و هَا أَنا أُقادُ مع هَشَاشَتي إلى المَمَر حَيثُ كَاظم ، و لكن كَاظم لَيس هُنَا ، لمَاذا أسيرُ إلى حَيثُ غُرفته ، كَانت النَافذة النُحَاسية تُطلُ على المَمَر ، نَافذة زُجاَجية كَبيرة تَكاد تَرى مَا يَجري في الغُرفة من خلالها ، هَبطَ قَلبي عندما رَأيتُ المشهَد و لكَأنهُ يتَكرر ، لقد أَلقى بجواز سَفره على السَرير و قَد تَجهزَ للرَحيل .

ألقيتُ بمدَامعي بجَانبِ مَا رَأيت ..

تكادُ مَفاصل قَدميَّ تترنحُ يمنةً و يَسرة ، فلا أقوى على الوقوف ، و لكن لا بُدَ لي من مُراعاة المَوقف ، فَدائماً كنتُ أقول البقاء لله ..

آمنتُ بالوَاحد الأحد الذي لم يَتُركني للغياب ، فهل أنا التي أفرغني الغَيابُ من وُجوههم ! ، هَل الغياب لهُ عَينان و أُذُنان أو عَقلٌ و لسَان ! ، أم إنهُ مُجرد سَوط يُجلدُ بهِ أهلُ الشَوق كُلما لاحَ لهُم الحَنين !! ..

أذكُر عندما أتاني كَاظم يَبكي بَعد الانتهاء من أحد أيام الدراسة ، يُبللُ وَجههُ بالدَمع ، أرى بينَ كُل شَهقةٍ حَزقةً تَنخرُ سَقفَ حَلقهُ ، اقشَعر بدني آنذاك من حَاله ، أخذَ حقَيبته المَدرسية و جرى نَحو السَطح كي لا يُظهر لنا دُموعهُ ، كَان الدَرجُ من الحجر و الطين ، أُكنسهُ كُلَ يَوم خَوفاً من تَراكُم الأتربة و الغُبار ..

نَدمتُ حينها ، فكَيفَ لمكنسَة الحَقيقة أن تُزيل آثار أقدامهم التي تَهبطُ و تنزلُ دَرجة .. دَرجة !! ..

تَركتُ القُدور تَحتَ الحَطب ، غسَلتُ يداي بالماء و هَرعتُ إليه كي أرى ما به ..

كَاظم ذَاكَ الذي أرى به رُجولة قَبل أن تَنضج به الفُتوة ، طُفولتهُ تَتَبارز مع صَدى الخُطى نَحوَ المُستَقبل ، فَي عَينَيه لمعةُ أَملٍ أَخشَى أن تَنطفئ ، لا أُريدُهَا أن تَنطفئ ، أُريدُهَا أن تَشتعل و لكني أَخافُ أن تَشتعل بنَا جَميعاً و تَشُبُ في غَير مَكَانهَا و تُحرقنا جَميعاً و تَجعلنَا رَمَاداً ..

كُنتُ أُحبُ أن أُمَيزهُ لأَنهُ قَليل الأوامر و الطَلب ، و لكن من غَير أن يُلاحظ عَليَّ البَقية ، انطواءهُ يَجلبُ لَي التَفكير به مَلياً ، يَبحثُ في السَماء عن شَيء ضَائع و لكنهُ لا ييأس ، و مع كُل هَذا الشُرود الحَاذق فَإنني مُطمئنة عَليه ، من بداية نُمو الفطنة في صَدره و أنَا لا أخشى عَليه ، فَقد تَربع الذَكاء به منذُ أول دُخوله إلى المَرحَلة الابتدائية ، هُو في معركة دَائمة مع الحَياة يُبارزُ الدُنيا بحُلم لا نَعرفهُ بعد ..

الطموح أقامهُ ، جعلهُ نخلة شَامخة نَرفعُ عُيوننا كَي نَراهُ ، يُدهشنا بمزاجه الصَامت ، خَلوته الخَفية ، اختفاءه المُباغت ، صَولته و جَولته في السُمو و العُلو ، عرفتُ بأنهُ من عُشَاق العُلو و المُرتفعات الشَاهقات ، كم كنتُ أراهُ يَمشي على حَافَة السُور العَالي ، و يُجالسُ أسطُح البَيوت ، و يَتسَلقُ الأشجار الباسقة ، لا يَكترث بمظاهر الإغراء التي

نُغري بها الأطفال ، يَراها مُجرد كذبة أو استعطاف كي نُسكتَهم ، و إذا أرادَ شَيئاً يَأخُذهُ بيده و بالطَريقة المَشروعة..
يَخشَى من كَشف دُموعه لنَا أو لغَيرنَا ، يَرى بأنَ هَذا الأمر ذَنب يُعاقب عَليه قَانون العَيب ، بصدرٍ نَظيفٍ و عَقلٍ مُنيرٍ و هُدوءٍ مُخيفٍ تَعُد للألفِ قَبل أن تُفاتحهُ بأمر مَا ..
و لكنهُ يَعرفُ ما يُحيطهُ عَقلك حتى لو لم تَتَكلم ، فإن تكلمتَ أو لم تَتكلم ، فغطاء مَا تُريد البَوح به مَكشُوف ..
يكادُ قلبي يحَارُ على فَهمه ، و لكنني مَسرورة لأنَ الرُجولة وُلدت معهُ منذُ الصغر ..
هَا هُوَ اليَوم يَأتيني باكياً مُتخفياً بأحد أسَوار سَطح البَيت ، يَقعُ قَلبي أرضاً مُندفعاً و مُتدفقاً بألمه ، أَجري خَلفهُ كَأنما حَصَلت مُصيبة ، أقفُ على أول دَرجة من السلم الحَجري ، و بينَ الصُعود و العُلو هُنَاك أعلم بأنهُ لا يُحب أي أَحد أن يأتيه و هُوَ منطوٍ على نَفسه ..
رَزقني اللهُ صَدر الفطينات الهَادئات ، عُدتُ أَدراجي أتمايلُ إلى المَطبخ ، أضربُ كَفاً بكفٍ و تَركتُ قلبي عند عَتَبة درج السَطح وَحدهُ ، و أتمايلُ بَينَ مدٍ و جَزرٍ حَائرةً على مَا جَرى ..

في المطبخ الذَي تتسَرب من سقفه المَياه في كُل شتاء ، و حتى لو طافَ ماء و فاضَ البَيتُ طيناً ، فكونكِ امرأةٌ عراقيةٌ يَجب عليكِ أن تلجأي إلى قواكِ إن بقي لك قوى ..

قِدرُ الطعام على الحَطب و الدُخان يَتصَاعد من المدخنة و الحطبُ مَصفوف فَوقَ بَعضه البَعض و العَرقُ يَسيحُ من جَبيني مُخترقاً ظَهري ، يَسيلُ ببرودة حَيثُ الصَمت ، يَتولى و يَتلعلع بصعوبة إلى مَا بَعد البُعد ، و أنكمش تَحتَ ثَوبي كَأنني أُنثى تُريد أن تَكتَشف جَسدها ، أنفضُ عني هَذا الدُوار لأنَ مَا شَغلني أهم من جَسدي ..

يتحلقُ أبنائي و بناتي عَصراً حَول القصعة كَصغار القطط التي تَسحبُ و تَشفُط من أثداء أُمها ، و يَبدَأ الخُبز يُمزق تَحت أياديهم المُغَبرة بالأتربة ، أرمقُ أظافر حسين الطَويلة فيَقشَعرُ بدني و أصمُت كَي لا أسُد قَابليتهُ على الطَعام ، و لكن بَعد الغداء هُنَاك زَفة أو مُحاضَرة عن مَوضُوع الأظافر الطَويلة ، لم تَكُن الأحلامُ على مَقاس النظافة آنذاك ، و لكن كَانت الصُدور أنظف من كافة مسَاحيق غَسيل هَذا الزمان ، لم يَكُن لدَينَا مَسَاحيق و لا أدوات تَنظيف و لكن الأرواح عَقمها اللهُ بالطُهر و البَسَاطة و الطيبة ..

في غُضُون عشرين دَقيقةٍ يختفي مَا في القصعة من أَرُزٍ و شَرابٍ يُليِنُ الأرُز ، و تَبدأ الأصَابعُ تُلعق بالأفواه ، يَقوم الوَاحد تلوى الآخر إلى حَيثُ دراسَته أو إلى حَيثُ لعَبه ، كَانت الحَلقة فارغة من كَاظم ، ألا أن قَلبي عندهُ حَيثُ العُلو على كُل هَذه المَلذات ، لم يفقدهُ أَحد من أبنَائي ، كُل شَخصٍ غَارقٌ في جُوعه و مَعدته ، و لكني أنَا المُبتلة بالقَلق عَليه ، فلم استَطع أن آكُل لُقمة وَاحدة ، و مع أني مُتعبة و مُرهقة و جَائعة ، إلا أنَ الغَصَة تَخنقُني و تَخترقني ، حملتُ القصعة على رَأسي آخذةً بهَا إلى المَطبخ بعد أن انتَشَرَ أبنَائي كُل شَخص إلى حُلمه ، وسَحبتُ أَحد الصُحون التي مَلأتهَا بالطعام لكَاظم ..

فقانون البَيت يَقول ، إنَ الذي لا يَحضُر الغداء فَلا غداء لهُ ، كَسَرتُ كلمة زَوجي و قَوانينهُ التي تكادُ لا تنتهي و لا تلتئم، و غَطيتُ الصَحن بقطعة من القُماش كي لا يَراني أحد ، و حملتُها بسلة قَش أمشي على رُؤوس أصَابعي ..

و لا زلتُ أمشي على رؤوس أصَابعي ..
أخشَى من السُقوط في حُفرة الذَاكرة ، و لأسقُط ، لم يَتبقى من العُمر شَيئاً أخشَاهُ ، لا قَوانين الزَوجية و لا مَواعيد الطَعام و لا أوامر الحَياة ..
و لا زلتُ أمشي على أطراف شَقائي ..
انهكُ ضَعفي بالجُلوس على باب الإنتظار أُراقبُ المَارة و أترصد ملحَ العيون و خُصُوبة الشَوق فيهَا ، أُعاينُ ميزان القَدر كَيفَ يَطفو بهِ الدَهرُ و يُهزُ سَلاسلَ الليل و النهَار بكُل خفة ..
لا زلتُ أمشي على عَصَائب سَقمي ..
حَاملة هَمَ مُستَقبلِ أَطفالٍ أخافُ أن يُطفأ بهم ضَوء الأَمل ، تُبعثرهُم المَتَاهات في معركة الحَياة ، و لكني تَوقفَتُ ذَاتَ صَدمة عندما حملتُ صَحنَ الطعام إلى السطح قَاصدة به كاظم ..
أصعدُ السُلم الحجري إلى العُلو و يَهبطُ قَلبي كُلما ارتقت قَدمي دَرجة حتى وَصل بي زَفيري و شَهيقي إلى نُور السَطح حَيثُ الحَقيقة حيثُ الوُضوح و رُؤية العَالم من فَوق هَذه المنصة ، أرى من بَعيدٍ كَيف كانت أشَجارُ النخيل

تتشَابكُ حَول بَعضها البَعض والسَماء صَافية ، حَافةٌ تَجري تَحتَ قُبتهَا غُيوم مُتفرقة بحاجة لمجهر كي أرمُقَ مداها ..

تَحارُ عَيني في هَذا التأمُل الشَاسع كَيف بحصرها في إرث الجمال ، و تَقعُ عيني على كَاظم مُتمددٌ تَحتَ عَريشَة صَنعها بنفسه من سَعفِ النَخيل و اتخذها مَقراً له لمُراجعة دُروسه..

نائمٌ تحتَ فيئها ، كَأنهُ ظبيٌ مُنهكٌ من المَطارة ، عظامهُ رَقيقة و عَضَلاتهُ دَقيقة ، فَهوَ بينَ الضَعف و القَوة يَتمركزُ حَيثُ النُور ، تاركاً الطَعام و مُختلياً بنفسه ، أردتُ أن أضمهُ و لكنهُ مُنهك من التَعب قَد فَتحَ فَاهُ للهَواء و سَالَ لُعابهُ على خده و تَجمع حَولهُ سَرب من الذُباب يَنهشَهُ كيفما تَقلب ، كانت عملياتُ الحَك و الهرش قائمةً على قدمٍ و سَاق، ذُبابة تَحُط و ذُبابة تطير و ذُبابة تَهبُط و ذُبابة تَزنُ و تأنُ و كَف كاظم تَصفع بلا وَعي ..

ضَحكتُ حتى صَدرت من فَمي قَهقَهة تَكادُ تُسمع ، و لكن أنبني ضَميري على ما أصدرتُ من صَوت جعلهُ يستَيقظ ، كَانَ يَهرش بجَفنيه كَأنهُ في حُلم فَليس من عَادَتي أن أصعدَ السَطح :

ـ يُمَّة ! ..

هَكذا قَالهَا ، بخَوف و غَرابة و فَزع ، عَرفتُ بأنهُ نمت به هَيبة الرُجولة منذُ الصغر ، قَفز كَأنهُ يتفحصني بعَينَيه الوَاسعتين كَعيون الجمل ، يَحكُ رَأسهُ بأظافره الطَويلة و لكنها نَظيفة لأنهُ يَكرهُ اللعب بالأتربة و القاذُورات :

ـ شبيچ يُمَّة !! ..

ابتسَمتُ في وَجهه ، زادت الغرابة حتى استوى به التعَجب، أمسكني بكفه الصَغيرة المُتشَققة ، يُريدني أن أجلس معهُ تحت عريشَة سَعف النخيل ، و أول مَرة أشعر بالراحة في هَذا البيت و من هَذه الزَاوية من السَطح :

ـ ليش ما نزلت يمنة و تغديت معنا !! ..

وَضَعتُ لهُ صَحن مملوء بالطَعام أمامهُ و رغيف من خُبز التنور و طماطم ، لقد اخترقت قانون البيت من أجله ، فَبادرها و ضَمها و بَكى :

ـ عليش تبچي ! ..

الحياة قاسية جداً ، كالشَيب الذي سَطا على رَأسي ، كانحناء ظَهري ، كضَعف نَظري ، كَرجفة يدي ، كَألم مَفاصلي ، كَسُقوط أسناني ، و أقسى من ذَلكَ كُله هي الذَاكرة و ما بها

من حُب و كَراهية ، أنَا التي لم أعرف مَا هُوَ الكُرهُ و الحقد، فلم أرهُ و لم يَدخُل بَيتي و لم ألمسهُ :

ـ اليوم الأستَاذ سَألنا ، شنو تريدون تَصيرون بالمُستَقبل ، أنَا قتله أريد أصير طَيار ، هم صَار يَضَحك عَليَّ و ضَحك عَلي الطُلاب ..

اتسَع صَدري بسماع أحلامه ، و كَبرُ في عَيني أَكثر و أَكثر، و حلقتُ معهُ بينَ الغُيوم حَيثُ العُلو الشَاهق فَوقَ أحلام هَذه البَشرية الهَشَة ، صَنعتُ لهُ في مُخَيلتي طَائرة و كُرسي و مقود و بدأ بالطَيران و العُلو و الهُبوط حَتى قَاطَعني :

ـ قال الأسَتاذ هَذي أَحلام يابة ..

حملتُ بجسده النحيل و وضَعتهُ أمامي كَي أُعلمهُ أول دَرس في الحَياة :

ـ وليدي يُمة ، أريدك تسمعني ، أنتَ راح تصير طيار ، أنتَ قوي و لا تخلي أحد يعكرلك حلمك و يردك عن طريقك ..

كان يَستمع لي لكَأنني أول مرة أنجبتهُ ، لم يَسمعهُ من أحد قَط ، شَاهدتُ على سَطح عَينَيه لمعة كزُجاج الطَائرات

الأمامية ، لمحتُ في نَظرته قُوة كأجنحة الطَائرات الحَربية، أوقفتني شدة الخط الذي بَين حَاجبيه كمراوح الطائرات المدَنية ، فَتحَ أُذُناهُ و عَيناهُ و ثُقبا أنفه و فاهُ ..

لا يُريد أن تُفلتَ كلمةٌ من نَصيحتي ، عرفتُ بأنَ هَذا الطفل لهُ شَأن كَبير ، لهُ حُلم بحجم هَذه السَماء يُريد أن يَقطعها بنصيحة و اهتمام حتى لو بالكلام ، لا أعرف كَيفَ أنَّ الله ألهمني و صَعدتُ إليه كَي أُرممَ جُرحهُ و أُعالجَ قَلبهُ ..

ها هُوَ يَكشفُ عن الصَحن و يَقسمُ رَغيفَ الخُبز بيَني و بينهُ و يَأكُل كَأنه لم يأكُل في حَياته قَط ، هَبطت على قَلبي سَحابة رَاحة عارمة عمت أرجاء رُوحي حتى ارتويتُ به و بابتسامته ، ذَهبَ إلى المَدرسة و رآهُ المُدرس و قَالَ لهُ :

ـ من الذي وَضَع في دماغك بأنك سَتكون طَيار !! ..

ابتسَم كاظم و قَال :

ـ أُمي قَالت لي ، و أمي لا تكذب ..

ثقة ..

لا تَحتاجُ إلى مُقدماتٍ كَي تُشرح ..

إنها أزمة ثقةٍ مُكتظةٍ في قُلوب النَاس ، و صفةٌ كَاملة الدَسم مسَحوب منها كُل ما هُو مُؤلم ، نَحنُ لا يُؤلمنا سوى قلة ثقةِ الآخرين بنا ، فمهما بَسطنا على مَرأى الآخرين طُهر النوايا، إلا أنَ فتيلَ الشَك يَشتعلُ بهم بَين فَينة و أُخرى ..

وَحدهَا الأُمهات تُعطي و لا تأخُذ ، تَمنح و لا تَسلب ، و تُجازف و لا تنتظر ، تُقبل و لا تُدبر ، تَترسُ و تُقاتل و لا تَنفُر و لا تَتَلوى ، تُريدُكَ أن تَكون و لا يَكون أَحدٌ غَيرُكَ ..

و في المُقابل تَتكئُ على جعودة جلدهَا تَنتظر و تَنتظر و تَنتَظر، و أنتَ تَنسَى وتَتَناسَى و تَكذب عليهَا و على نَفسك بأنكَ نسيت ، و هي التي لم تَعرف للكَذب عنواناً :

أُمي لا تَكذب فأُمي صَادقة ..

حَسناً و أَنتَ ، فأنتَ هُناك حيثُ النوى يمشي على الطَريق الذي اخترتهُ بَعيداً عنها ، إنهُ اختياركَ أنتَ ، أنتَ الذي أُنزلَ بكَ قُرآن يُتلى آناء الليل و أطراف النَهار :

ـ و لقد كرمنا بني آدم ..

نعم يا رب و نعم الكرامة هي ، و لكن الإنسان أقسى من الحجر على أخيه الإنسان ، فكيفَ بأُمه التي سَحبت روحها من جَسَدها و وضعتهُ بروحك ! ..

كَيف أخبرني !! ..

على مسَافة قَريبة من هَذا العَالم هُنَاكَ أنا ، أجتاحُ هَذا الفناء الضَيق لوحدي ، أنسَلخُ تحتَ نُور المصباح الكَهربائي عارية كَيوم وَلدتني أُمي ، فأنا التي لا أؤمنُ بالمياه المَغلية على الكَهرباء ، أُحبُ أنَ أرى البُخار يَتلعلعُ من الإناء النُحاسي مُرتخ على بَبور بوتاجاز و الصَابونُ اليَدوي يُلوحُ لي أن كُلنا أشواق ، أصواتُهنَ هُنا و هُناك يَخلعُ أقفالَ الصَدر و يَنصبُ في شُقوق الفَقد صَباً ، أشواق مُحماة على الجمر المُغبر بالغَضَب حتى سَاخَ و سَاحَ و يَتدفق بكُل مَا أُوتي المَوجُ من فَيضَان ..

أصواتٌ تُهمسُ بكُل حَياء ، هي الحَياء بكافَة أُنوثَتها تَتسَربُ منها رائحة الغَار و النَرجس ، هيَ العراقية إن اشتعلَ بهَا الجمال فَإنَ غَيرَ الموت لا يُطفئُ جمالهَا ، هي الأصيلة المُتَأصلة و الصَابرة الراَضية المُحتسبة على بلاء هَذا الزَمان ..

أَرى جَسدي أول مَرة عَارية أَمامَ مرآة الحمَام الطَويلة ، جسَدٌ مُترهل بَينَ كُل عَضَلة ، البَطنُ يَكادُ يَقع من خُلوه منهم و من تَزاحُم الذَاكرة بهم ، الجدائل مَدهونة بالزَيت مُصطفة أَمَامَ الحَياة مُدبرة للمَوت قدَ حَلَ بهَا الشَيبُ مُقيماً على رأسي..

أفردُهَا جَديلة تلوى الأُخرى ، كما كُنتُ أفرد جدائل فَاطمة في الزَاوية نَفسها و أجلسُ تَحتَ نُور الشَمس الذي يتَسللُ من النَافذة العُلوية للحمام لكَي أُفلي لها رَأسهَا شَعرة تلوى الشَعرة ..

فَاطمة التي أنجبتها و أنجبت لي الحَياة ، كدتُ أن أُغلق عَلى منافذ رُوحي من الوَحدة و العُزوف عن مُشَاركة الجيران مُناسَباتهم بسَبب تَراكُم أعمال الدَار ، بَعد أن أنجبتُ حُسَين انتَفخَ بطني كَأنني لم أحبل و لم أعي ألمَ الحمل ..

خَفية المنفس ، خَفية الظَل ، بَهَية الأُنس ، جارة الرُوح ، شَهية قَبل أن تُقبل ، شَجية بَعد أن تَأفل ، طَيبة الرَيح و الرَاحة كَأنَها من سُلالَة آل البَيت و أوجاعهم ..

سَقطت من بَطني و لم أتلفظ بكلمة و لا بصوت وَجع ، سَقطت و أنَا أجمع الحَطب من وَراء الدَار ، أتَت بغير مَوعدها يَتدفقُ منهَا مَاءَ الرَأس كَأنهُ منجم ماس و انفجر ..

انفجرتُ من الرُعب آنَ ذَاك و صحتُ بأعلى صَوتي :

ـ هيه يَا سُلطانة ..

تأَتي سُلطَانة كَأنهَا فيلٌ و أَقبل ، تَهتَزُ الأَرض من تَحتهَا و تَأن ، أُشَاهدُ أَطراف عَباءتهَا المُهترئة تَزحفُ من بَعيد ، مُبللة بالغُبار و أَتربة الأرض ، يَبدو عليهَا بُقع الزَيت و غَيرهَا من بَقايا طَعام ، و ما إن وَصَلت حَتى فَقدتُ الوَعي..

كَأنَ ذَاكَ اليَوم هُوَ الآن ، أَراهُ بأُم عَيني يسيرُ إليَّ و أَنَا أُبطئُ في السَير أتُراني أهربُ منهُ أم أقترب إليه ! ..

كَيفَ لأُنثى مثلي لم تكتَشف أُنوثتها حتى استوى بها التعَب ، و أنهكها الطَريق ، كَيفَ لي أن أكتشفَ جسدي الخالي من بُقعة الضَوء الضَئيل ..

بعد دَهر من الشَيب يَأتي من يُغني لنا :

يا أُمي يا أُم الوفا ..

يا طَيب من الجَنة ..

يا خَيمة من حُب و وفا ..

جمعتنا بالحُب كُلنا ..

أُتراهُم كَذبوا عَلينَا حتى أَضحينا أُمهات يُطلقونَ عَلينَا : هَذوله بَرجتنا ..

ضَاعَ العُمر خَلفَ مُقود القَدر و بَينَ جَلب المَاء و الحَطَب ، و بَينَ الطَبخ و النَفخ ، و بَينَ الغَسيل و النشر ، فهل الغناء و ضَرب الدُفوف سَتعوض لنا تلكَ الأيام الخَالية ..

أنَا خَالية من صَدى فَاطمة : إيه هَم هي حَبيبة رُوحي ..

أفتحُ عَيني في وَسط الدَار أرى نُسوة الحي فَوقَ رَأسي ، يَبتسَمنَ كَأني عَروس في لَيلة فَرحها ، سُلطانة تَتفادى تلكَ الوُجوه ببشَاشتها :

ـ شنو تريدين تسمينها ! ..

أنظرُ إليهَا مَلفوفة بقماش أبيض و وَجهها كالثلج أبلج أزهر كَأنها سَقطت من رَحم القَمر ، أقرأُ آيات من كَلام الله :

إنما يُريد الله أن يُذهب عنكُم الرجس آل البيت و يُطهركم تَطهيراً ..

فَاطمة ..

إنهُ أَجمل اسم إلى قَلبي ..

كم كُنتُ أَحلُم أَن يَكونَ لَدَي طفلة و أُسَميهَا فَاطمة ، أَذكُر عندما كُنتُ طفلة كَانت تَصنع لنَا وَالدَتي عَرائس من قُمَاش الوَسائد المُهتَرئة ، تَشقُ القُمَاش و تقطعهُ و تُخيطهُ و تَحشوهُ و تجَعل لهُ ثَياب على مَقاسهَا ، نَجلسُ أنَا و أخواتي حَولهَا و نَعلم مَا الذي تَصنعهُ و نَنتَظر اللحظة الحَاسمة كَي تَنتهي ..

سَبعة بنات مَظلومات كَانَ وَالدي يُعَيرهَا بأُم البنَات ، تَزوجها في سن الثالث عَشرة عندما كانت طفلة سَرق طُفولتهَا لتَجدَ نَفسَهَا في بَيت رَجُل يَكبرُهَا بعشرينَ عَاماً ، كَانت الوراثَة العربية سَائدة و كَانَ المُجتمع يغَلبُ عَليه الطَبقة الأَبوية المُتَخلفة ، و المراءة لَيسَ لهَا دَور إلا الصَمت و أن تَرضى بالعُبودية بحُكم الدين و العُرف ..

طَبعاً لا أحد عندهُ الجُرأة على البَوح بَهذا المنطق ، لأنَ الجَميع لهُ حُدود يَجب أن لا يَتَخطاهَا ، و للأَسف و حَتى إلى اليَوم ، فَالأَدمغَة بيعَت مُنذُ أن سَادَت العُبودية على هَذه البَسيطة ، و تَمُر الأيَام و تَذهب الأَيام و نَحنُ لا زلنَا نَقول : بَسيطة ..

قَالوا لنَا بأنَ هُنَاكَ ثَورة سَتَحدثُ ضد العُبودية ، جَلسَنا على مُفترق الحُلم فَولدَ في المنَام مَرضٌ آخر يُدعى الطَائفية ، و لكَن أَنتِ أُنثى لا علاقة لك بالسياسَة ، و لا بسُلطَة و ما أنتِ إلا رُكنٌ لَين يعد السَلطة ..

كَانت أُمي تَقومُ بخدمة زَوجهَا و عَمَتهَا الظَالمة ألا و هي جَدَتي ، تَحملُ الحَطب من السُهول و لا تَعود حَتى يَكوم على رَأسهَا حملٌ يَتَخطى وَزنهَا كَي يَكفي المُوقدة التي تَجلس بجَانبهَا جدتي ، و تَعود إلى النَهر و تَحمل المَاء على رَأسهَا و بيديها ، و كم وَقعت أَرضاً و كم تَعَثرت بحَجر و كم قَرصَتهَا الحشَرات !! ..

لا تَسأل عن الكَم بل عَليكَ أن تُسَلط الضُوء على مَساحة الألم التي تَخترقَ جَسدهَا بَعد الانتهاء من أعمال العُبودية ..

تَفرشُ لنَا فرَاشاً وَاحداً بغطاء وَاحد في غُرفة وَاحدة ، و رَب الغُرفة و من فَيهَا و من عَليهَا يَنظُر إليهَا كَيفَ تَموتُ تلكَ الأُنثى بالتَجزئة ..

و لتمُت ، فلن يسَأل عنها أحد !! ..

لا أَحد ، فَقط هُنَا و على هَذه الأَرض هُنَاكَ مكانٌ يُقالُ لهُ مَقبرة يَقولُ : هَل من مَزيد !! ..

نعم هُنَاك الكَثير من النسَاء المَظلومات في كُل أصَقاع الأرض ، إنها مُجتمعات تَخافُ من الأُنثى و تَخشَى من أن تَستيقظ ، لأنهَا إن استَيقظت فَستَسقُط كَثير من الخُرافات .. سَبعة إناث تُعيرُ بهنَّ أُمي ، تَهرُب النسوة منها كَي لا يُصَبنَ بالعَدوى ، عدوى تَنقل الفَيروس الذي لا يَعرفهُ سوى الجَاهلات اللواتي يَخشينَ أن يَحبلنَ بأُنثى ، فَكَانت تُستعبد حَتى المَوت و تُضرب في كُل مسَاء ضَرباً مُبرحاً و يَأتيهَا في آخر الليل يُقبلهَا كي يُخمد شَهوتهُ و يَفتر مَا به من غَيظ، المسكينة تَهربُ قَبل أن تَسطع الشَمس إلى فناء الدَار تَمسحُ الدمَاء الجَافة من وَجهها و الذُبابُ حَولهَا يَلسعها ، تَغُط طَرفَ ثَوبهَا بقَصعة المَاء و تَمررهُ على جُرحهَا و تَبتلعُ الوَجع في جَوفَها كَأنهَا سكين شَرطَت أمعاءهَا ، و تَستَمرُ الأيَام ، أَرى تلكَ الأُنثَى يَتغير لَونهَا إلى الصُفرة من قَساوة مَا تُلاقيه ، قَبل العَصر تَجلس مَعنا بعَد أن تَضَع طعام الغدَاء لأَبي و لجدتي ، نَخرُجُ إلى الخَارج جَميعاً عدا جَدتي و أبي و أعمامي ، يَأكلونَ جَميعاً بشَره حَتى تَنتَفخ بُطونهُم و يشربونَ المَاء الذي كَانت تَحملهُ لهُم أُمي عَلى رَأسها قَاطعة

ثَلاث كيلو مَتر مَشياً على الأقدام كل يوم ، و بعد أن يَشبعُوا يُسندونَ ظُهورَهُم إلى الجُدران كَمنطَاد مُنتفخ ..

تَأتي المسكينة تَعرُج بقدم وَاحدة ، تُظهرُ القُوة أَمامهُم ، تَتَقدم إلى القَصعة التي التَهموها ، فمَا تَبقى في القَصعة هَذا غَداؤنَا و عَشَاؤنَا أنَا و أُمي و أَخواتي المُتبقيات ..

تُعَيرهَا جَدتي بأُم البنَات ، تَلسعها بالبَكور الذي تَتَكئُ عَليه ، تَجلدُهَا بلا أَية شَفقة ، و تنهالُ عَليهَا بالسَب و الشَتم ، تَسكُتُ أُمي أَدباً مُتَخطية مُعتادَة تلكَ العَجوز الحَقيرة :

ـ و أَنتِ أيمته تَجيبلنَا ولد !؟ ..

تُعَيرهَا و تُهَددهَا بَأن تُحضر لهَا ضَرة في أَقرب وَقت ، لأنَ جَدتي و أَبي مَلوا من البنَات ، تَدورُ الأَيام و لنَرى في المنَزل امرأة جَديدة نَقول لهَا خَالتي ، و تَقولُ لهَا أُمي زَوجة زوَجي ، طفلة صَغيرة عُمرُهَا خَمسَة عَشر عَاماً ، أَتت إلى المَصيدة و لم يَدرِ بهَا أَحد ، و لكنهَا كَانت تَتَفاخر بأنهَا من ابنة عشيرة فُلان الفُلاني ..

لا تَفرحي يا حَبيبتي في هَذ البَيت النسَاء كُلهُن سَواسية كَأسنان المشط ، بَعد أن حَلت زَوجة لأَبي في الغُرفة الثَانية

التي تُجاورُ غُرفتنَا سَمعنا صَوتَ ضَرب بالسَوط و عَويل يَمدُ المَدى و أَبي يَقول لَها :

ـ هنانة ما عندي عشاير و مشيخة !! ..

لَقد عرفنا الدَرس الذي تَلقتهُ من أبي ، لم أَذُكر بأنَ أبي ضَم أَحداً منَا أَبداً ، و لا في يَوم من الأيام أَعطانَا أي شَيء ، و لا حَتَى جَدتي أَبداً ، و كان يُمنع عنَا الإقتراب إلى غُرفة جَدتي لأنهَا لا تُحب صَوتَ البنَات ، و تَقول القاعدة ، الجَزاء من جنس العَمل حَتى تَحبل تلكَ الضَرة التي تُجَاورُنَا، فَكانت تُجالسُ جَدتي و تُضَاحكُهَا و أُمي خَادمة لهَما و نَحنُ البنَات الصَغيرات جَالسَات نَنظرُ سينَاريو القَدر مَاذا يَطهو !! ..

لَقد ذَوبَ أُمي في مَحلول الحَياة قَبل المَمَات ، تَساءلتُ بَعدمَا عَرفتُ الله :

ـ كَم من جَنة تَليقُ بصبر أُمي !!

وَحدهُ من خلَقَ السمَاوَات الَسبع و من عَليهنَ و من فيهنَ يعرفُ كَم الأَجر الذي سَوف تَحصلهُ من ظُلم حَصَلته من أبي و جدتي ..

فَالجَزاء من جنس العَمل ..

هَكذا و من غَير أَيّة مُقدمَات ، انتَفخَ البَطنُ في أحشَائهَا ، و وَصَل إلى حُلقومهَا حتى تَورمت مَفاصلهَا ، كُل من في البَيت قَد تَأكد بأن في بَطنهَا وَلد ، نَذر أبي لله نذراً إذا جَاءهُ وَلد أن يَذبح خمسين نَعجة عند مَقام العَباس شُكراً لله تَعالى، و نَذَرت جَدتي إذا جَاءها حفيد أن تَمشي إلى الإمَام الكَاظم حَافية القَدَمين ، و أَما أُمي سَمعتهُا تَدعو :

ـ الله يقومهَا بالسَلامة ..

أُنثَى لا تَعرفُ الحقد و لا الكَراهية كَأنهَا غَيمة صافية تَسيرُ وَحدها في سَماء رَبيعية مُهددة من حَرارة الشَمس مَحمية من أواخر الهَواء ، لا أعرف إن كَانت أَحبت أَبي أو دَخلَ هَذا الرُجل إلى قَلبهَا !! ..

آه من قَلبهَا كَم صَبرت و تَألمت و لَو كَانت صخرة لتَصدعت و تَفجرت و سَلت منها اثنتا عَشرة نَهراً قد علَم كُلُ أُناس مَشربهُم ..

أتَت سَاعة الحسَاب و بدَأ الطَلقُ يَشدُ بهَا نَحو الصُراخ ، مُعلقة تلكَ النُطفة التي نَنتظرُهَا بفارغ الصَبر بَين رَحمها و فَرجهَا ، تُولول بكُل وَجعها و لكَأنهَا أولُ امرأة تَلدُ و آخرُ

امرأة تَضَع ، و نساء القَرية حَولهَا يَشددن من عَزيمتهَا أَن تَحملي و اصبري و شُدي بكُل قواك ..

كَان المشهدُ مُفزعاً أَنظُرُإلى جَدتي وهي جَالسَةٌ أَمامَها و بيدهَا عُكازهَا و مَفاصلهَا تَرتجف ، يَرفُ جَفنها الأيسَرُ بكُل قواهُ و عُيونهَا قدَ أُشهرت على بَطن زَوجة ابنها الجَديدة ، فَهي لا تُؤمنُ لا بهَا و لا بنسَاء الكون برمَتهَا أَبداً ، هي تُريد مَا في بَطنهَا و ينتهي كُل الأمر ..

يُقالُ بأنَ جَدتي رَضعت من ثديي سبع أَمسكت به على أَطراف الغدير و هي تَجلبُ المَاء ، و يُقال بأنهَا كَانت تَصطاد الأرانب ، و يُقالُ بأنهَا كَانت تَحملُ صُخوراً يعجز الرجال على حملهَا ، و القَول الصَحيح بأنَ كُل مَا قد قَيل كَذب ..

هَذه المَرأة على الأَغلب بأنهَا رَضَعت من أَثَداء الكَلاب و كَانت تَصطاد الفئران و الصَراصير و تَحملُ على رَأسها القُدور الخَاوية و في قَلبهَا الأَحقاد البالية ..

و تَحتَ وطأة الحَمل و الطَلق تَخرُج لَنَا أُخت جَميلة كَأنَ وَجهها النُور لتنضم إلى الأَخوات السَبعة تَحت رَقم البنت الثَامنة ..

تَنفَلقُ عُيون جَدتي إلى نصفين ، و تَظهر في عُروق عُيونهَا الحُمرة الدَاكنة التي كَانت تَأتي كُل مَا أَنجبت أُمي بنتاً ، و لكن هَذه الحُمرة كَانت خَمرية حَدَ المَوت ، لم يُصدر النسوة أي صَوت ، التي وَلدت خَالتي و بعد أَن أَخرجت الطفلة من بطن أُمهَا ضَربت كَفاً بكَف :

ـ و العَباس هَذي جَريمة ثَمن بَنَات !! ..

بَعد أَن لُفت الطفلة بثَوب من قُماش كَان يُتوقع بأنهُ قُماش ذُكوري حَملتها إحدى النسوة إلى جَدتها ، أَدارت الجَدة وَجهها بسُرعة النسر الطَائر، و بطرف عُكازها رَدعتها :

ـ بَعدوها عني ما أريد أشُوفها ..

حملُوها إلى أُمها أمسكتها و حَضَنتها بكُل حُب ، و كيفَ لا و هيَ بكرهَا ! ، جُنت الجدة على مَشهد التَعاطُف بَينَ الأُم و الطفلة و نَطقت سُمومها نَحوَها :

ـ أنتِ تَريدين بَنت ، و لو نَويتي على ولد كُنتي جَبتي وَلد ، من يطلع الصُبح ما ريد أشوفج هَنا ، تَحملين الحَبل و تروحَين تلمَين حَطب مع هَذيچ الچلبة ..

مَن تَقصد يا تُرى ! ، خَفضت أُمي رَأسهَا أَرضاً ، حَتى وَصَل لظَى صدى الشَتم إلى قَلبهَا ، إنهَا قوة التَحمُل التي لا

بعدها قُوة ، تَبتلعُ أُمي كُلَ يَوم مَا تَبتلعُهُ من شَتم لها و لأَهلهَا و تَصمُت حَتى عرفتُ لمَاذا كَانت تَصمت ، من أَجلنَا ..
تَخشَى أن تَفقدنَا ، فهي التَي لا تُفرقُ بينَ رَجُل و لا أُنثَى إلا بعمله الصَالح و سُمعته الطَيبة بَينَ النَاس ..
جَاء أَبي من العَمل ، كَان يَملكُ أرضاً قُرب دَجلة يَزرعُ بهَا الخُضَار ، يَملكُ خَمسين عَاملاً كَالإقطَاعيين الكبار ، وَجههُ ممسوح منهُ هَيبة الإيمَان و النُور ، تَجاعيد ظُلم تَتَكئُ في مَلامحه ، شفاههُ جَافة تكادُ أَن تَموت يضَعُ الغُترة و العكال على رَأسه كَأنهُ طَاووس مَنفوش ، بين أصَابعه تَتلاعبُ سُبحة ، حَباتهُا أَكبر من التَمرة عددها ثَلاثَة و ثَلاثَين ، يَميلُ إلى السُمرة قد سَقطت كَثير من أَسنَانه بَسبب السُوس الذي يَتخللهَا ، و كُلمَا اشتدَ به الألم كَان يُمسكُ العكال و يَضربُ به أُمي على جَنبهَا و ظَهرَها و فَخذيها حَتى يهدأ به الأَلم ، و أَما بَطنهُ كَأنهُ حَامل في الشَهر السَابع بَعدد البنَات .
جاءَ أبي على ظَن أَنهُ سَوف يَأتيه صَبي ، خَيبَ اللهُ ظَنهُ و ظَن أُمه العَفراء بنت السَباع ، كَانت جدتي قد قَامت تَسيرُ بعُكَازتهَا نَحوَ غُرفتهَا ، في فَناء البيت كَانت تَتَدحرج كَأنهَا بطيخة و تَتَكور باستياء :

ـ هَا يُمَّة بَشري ..

تُمسكُ بعَبَاءتهَا كَي تَستُر عَلى رَأسهَا ، تَشدُ شَفتهَا و الدماء تتَدفقُ من شَرايين وَجههَا :

ـ أَجتك بنية ..

يُجنُ أَبي كَأنهُ بُشر بموت أَبيه ، يُمسكُ العكَال من رَأسه ، يُسرعُ نَحوَ غُرفة ضرة أُمي ، تسقُط الغُترة من رَأسه ، يَظهر شَعرهُ الأَبيض الذي كَان يَصبغهُ بين كُل فَينة وَ فينة ، يَضرب البَاب بكُل قواهُ :

ـ ما أَريد و لا مَرة هَنا ..

تخرُج النُسوة خَارج الغُرفة ، تَحملُ أُمي الطفلة الصَغيرة في حضنهَا ، و يُغلق البَاب ..

و يُغلق الباب خَلفهُ ..

و إلى الآن ذَلكَ الصَوت يُطَارِدُني أَينما اتَجهت ، و يَرتحلُ مَعي أَينما ارتَحلت ، و يَحلُ بي كُلمَا انتَفخَ بطَني و أَتانَي طفلٌ أَو طفلة ..

جُزء من الذَاكرة ومن الطُفولة المُجردة من حَنان الأُبوة الذي كَرهُت به جُل الآباء ، هُنَاكَ تلكَ الطفلة المَلفوفة بغطاء الولادة تَنتَظرُ أَباها بفارغ الصَبر كَي يَكشف عن وَجههَا و يَضُمهَا و يَحنو عَليهَا ، لا زَالت تنتظَر كُل شَيء ..

أَقفُ على النَافذة مَع أَخواتي الأُخريات نُشَاهد سَيناريو الظُلم الذي يَحدث و كُل امرأة تَحملُ نَسلها و تَمشي إلى بَيتهَا ، لكَأن ولادة المَرأة بطفلة فأل شَر ، ويُغلق البَاب بإحكام ، حتى سَمعتُ صَوت المفتاح كَيف يَصدرُ منهُ رَنين ..

يَضربُ أبي خَالتي بُكل قَسوة ، كَأنَ الذنب ذَنبهَا ، ضَرباً مُبرحاً أَكثر مَا كَانت تُلاقيه أُمي منهُ ، لَقد ضَربهَا ضَرباً بقدر الدَلع و الدلال الذي تلقتهُ من جَدتي طيلة فترة حَملهَا ..

أَتَت أُمهَا من بَعيد ، سَمعت بأن ابنتهَا سَوفَ تَلد ، حمَلت بنَفسهَا و نسَاء العَشيرة إلى بَيتنا ، و عندما سَمعت بأن ابنتهَا

تُضرب جُنت الأُم ، خَلعت البَاب بقدمها ، فكان بهَا قوة بَقدر قُوة جَدتي على ثَلاث مَرات ..

تَوقفَ صَوت الضَرة قَبل خَلع الباب بثلاث دَقائق ، كُنتُ أقول بنَفسي أَنها أُغمي عَليهَا ، و جَعلها تَصمت حَين الضَرب ، أو رَبط فَمهَا بقطعة قُماش ، و لكن لا أحد يَعرف ما يَجري سوى الله ..

خُلع الباب و دَخلت أُم الضَرة كَي تَرى ابنتهَا ، فعندما سَمعت بالضَرب عَرفت الأُم بأنَ ابنتهَا أنجبت طفلة ، خَرجَ أبي من الغُرفة يَتصببُ عَرقاً كَأنهُ قاَدمٌ من حَربٍ أو أنهُ قد إنتهى لتوّهِ من سَلخ عَشرة خرفان ، صَدرهُ يَهبط و يَنخفض بقوةٍ حتى احتارت دَقات القَلب أتَجري أم تَتَوقف !!

صَاحت أُم ضَرة بأعلى ما بهَا من وَجع :

ـ مَاتت البنية ..

و قامَ في البَيت مَيتم تَلطمُ به النسَاء بكُل وَجع ، اتَخذن فناءَ الدَار التُرابي مَسرحاً لشَق الجُيوب و اللطم و العَويل و البُكَاء ، هَل مَاتت بالفعل أم أَنها كَلمة تُطلق على أَعلى شَيء للشَيء !!

فعلاً لقد مَاتت ضَرة أُمي ، و بَقيت أُمي لوَحدها مُجَردة من كُل شَيء ..

لم يَسكُت أَهل ضَرة أُمي أبداً ، قَامت الدُنيا و قَعدت يَومهَا ، هَربَ أبي المُجرم من نَافذة الدَار المُطلة على حَقل جيراننا ، و لكن رَصَاصَات القصاص لَحقت به حَيثُ المَزرعة ، ليُلقي المَوت القَبض عَليه مُضرجاً بالدمَاء النَجسَة ، حَملوا جُثَتهُ إلى بَيتنا ، رَأيتهُ مُمدداً أرضاً ، و جَددتي تَندبهُ و تَشقُ ثَوبهَا و تَلطمُ وَجهها : ليش عملت هَيچ يا عَلاوي !!

كُنتُ طفلة من غَير لسان و لكن صَدري فيه حكَايات كَثيرة بحَاجة لفضَاء يَسمعُهَا ، أَظنُ بأَن الفَضَاء هُوَ المسَاحة الصَغيرة لسَمَاع مَا في صَدري ، لكني سَأجد صَدراً أَتحدث به و أَنا لا أشكو من سُموم هَذا العَالم الجَبان ، مُمدد ذَاكَ الجَسد أَمَامي الذي يُقالُ بأنهُ أَبي ، مُغطَى جَسدهُ بالدمَاء كَذبيحةٍ مُضَرجةٍ بالنجس ، و لكنَهَا ذَبيحةٌ لا تُؤكَل أَبداً ، و كُل شَيء به مُتورم و مُنتَفخ يتَطايرُ حَولهُ الذُباب ، يَحطُ على وَجهه على يَده على صَدره على عُيونه ، أَرى أُمي جَالسة بالقُرب من جَدتي تَبكي عَليه ، هَل هي دُموع فَرحٍ يا أُمي أم دُموع فراق !! ..

سُررتُ لأُمي يَومها كَيف أنَ المَوت انتَصر لهَا بلحظة تَاريخية هَزت كُلَ العَائلة و خُصوصاً أُمهُ التي مَاتت بَعدهُ بشَهر وَاحد حُزناً عَلى من رَبتهُ ظُلماً ..

لا زَالت الطفلة عندنا ، قد تَفتَح وَجهها كَزهُور الزَنبق ، بهية كَأنهَا قَمر تَميلُ مَلاحتهَا كلَيالي بَغداد ، مَليحَة تَسرُ النَاظرين فَقد أَتت من بَعد تسعة أَشهُر من الدَلال ، فلم تأكلُ سوى العَسَل الصَافي و الدُهن العَربي و الحَلاوة و البَقلاوة التي كُانت أَكبر أحلامنا ، أَولُ مَرة رَأيتُ ذَاكَ الكَائن يَدخُلُ إلى بَينتنا شَيء اسمهُ البَقلاوة ، قَد سَمعتُ به في مجَالس النسَاء لا يأكلهُ أمثالنَا نَحنُ البنَات ، هَذا الطَعام لأُنثى حَلوب وَلود لا تُنجبُ غَيرَ الذُكور ، و بعد شَوط من الزَمن يُطلق عَليهَا لقَلب : شَيخة ..

كَانت جَدتي شَيخة تَكرهُ البنات ، كُنتُ أسَأل نَفسي هي لا تَعرفُ نَفسهَا بأنها أُنثى ! ..

لا أعرف سوى أَنهم رَحلوا بمُعجزة لا يَتصورهَا عَقل في أقل من شَهرين ، حتى شُفي قَلبي بَعدَ فراقهم ، فَليس كُلَ الفراق مُؤلم كما كُنَا نَظنُ أو نَسمع ، هُنَاكَ فراق فيه فَرح و سُرور و يُقامُ بعَدهُ عُرس ، و أَجمل عُرس لنَا بأن القدر

أنجبَ لنا أُختاً من أَبنَاء الظَالم و من الدَخيلة إلى بَيتنا بل الراحلة الضَرة الجَديدة ..

رَفضَ أَهل أُمهَا أَن يَأخُذوا الطفلة ، أَخذتهَا أُمي و رَبتهَا إلى جوارنَا ، كَأنَ البَيت أضحى شَمساً و هي نُورهَا ، اسَتشارتنا أُمي يَومهَا :

ـ شتكَولون يَا بنَات شتريدون نسميها !؟

كُنتُ أُطلقُ على اسم عَروستي التي خاطتهَا لي أُمي فَاطمة ، تَجرأتُ و قُلتُ :

ـ فَاطمة ..

ابتَسمت أُمي لأَن بهَا نَفحة من إيمَان و حُب لآل البَيت سَلامُ اللهِ عَليهم و قَالت و هي تَمسحُ وَجههَا :

ـ لعد أسميهَا فاطمة ، سَلامُ الله على أُمنَا الزهراء فاطمة بنت رَسول الله ..

و نَمت فَاطمة بَيننا كَسنبلة مُبللة بالطُهر ، فَكانت المُدللة اليَتيمة التي أَحببنَاهَا بكُل عشق .

و هَا هي تَتَكررُ المَشَاهد ..

كَأنهَا هي و لكن لم يَكُن لدَي زَوج ظَالم و لا أُم زَوج مُستعبدة ، فَقط هي الأَيام التي استَعبدَتني و رَكَلتني إلى هَذا الحَرف من الجَر ، فَلعَلني أُجرُ بحرف مَا ، و لكن هَيهَات كُل الأَحرُف أَضحت أَمام عَينَي مُتَشَابهة و مُتَماسكَة إلى حَيثُ الإغماء ..

هَا هي ابنَتي الأُولى أَراهَا بَينَ عَينَين ضَبابيتَين بالخَوف و الرَهبة ، أَراهَا و كَأَنَني أَعودُ إلى بيَت أُمي حَيثُ أسمعُ صَوت العَصا تطحنُ عظَامهَا و هي بَينَ فَكَي رَجُل يُقالُ لهُ زَوجها ، هَا قَد مَضَت سَبعونَ سنةٍ على تلكَ الذَاكرة التي لم تُمحَ أَبداً هي رَاسخَة في جُذور النفس دَاكنةٌ مُستمسكةٌ مُلقاة بَين طَيات هَذا الصَدر ، أَخشَى أَن يَكون نَصيب هَذه الطفلة كَمَا كَانَ نَصيب أُمي من ظُلم ..

كَانت شَهية كَأَنَ الله رشَ عَليهَا رُذاذ سُكر ، و كَأَنَني مُتألمة عَلى مَا سَيجري لهَا ، الجَميع يَنتَظرُ مني أَن أُسَميهَا حتى ملَّ أَبو حسين من الانتظَار :

ـ شبيج يا مَرة !! ..

مُتَرددة بَينَ الحَاضر و المَاضي ، أَزحفُ هَرباً من طَهَارة الاسم و نقيض الهُدوء ، نَعم إنهَا زَوبعة تَهبطُ و تَرتفعُ و تَنخفضُ حَيثُ المَدى ، حَتى سكت المَدى :

ـ أَريد أسميهَا فَاطمة ..

تَهَللَ وَجه أبو حسين ، ذَابت تَجاعيد سُلطانة ، كَسا اللهُ صُدورَهُم بالتؤدة ، و رَزقني اللهُ حُسنَ الاختيار ، و رَفعت سُلطَانة يَدَها عَالياً حَيثُ الهَواء و أَغمَضَت عَينَيهَا و رَاحت تُطلقُ زَغرودة بأعلى صَوتهَا :

ـ كلللييييششششش ..

رَن صَوتهُا في كُل زَوايا الدَار ، أَقفُ أبحثُ عنهُ بَعد أَن فَقدتهَا ، أُشَاهدُ رُؤوسَ النساء مُبتهجات بقدوم فَاطمة ، يُذبحُ جزور على أَعتاب أَبي عَبد الله الحُسَين شُكراً لوَجه الله تعَالى ، و تَتَعَالى الأَيامُ بكُل بسَاطة ..

كَبُرت فَاطمة ، و أنَا لا زلتُ تلكَ الأُمُ التي تَجلسُ بجَانب سَريرهَا تَأنُ من خَفايا النفاس ، مُمددة على ظَهري أُشَاهدُ فَاطمة التي لم أَعتقد بأنَني سَأُنجبُ أُنثى و لكنهَا أَتَت رُغماً عن كُل مَا يَدورُ من مُؤامَرات حَولَ الإنَاث ..

جَالسٌ أَبو حُسَين زَوجي الحَبيب في فنَاء البَيت ، قَدَ لَفَ سيجَارة يُريدُ أَن يَنفُثَهَا في الهَواء الطَلق ، أَراهُ هَادئاً جَميلاً سَعيداً مُتكئاً على حُلم لا أَعرفُ مَا هُوَ ، سَألتُ نَفسي :

ـ إذا كَبُرت فَاطمة هَل سَيبيعها كَمَا بيعت أُمي لرَجُلٍ يَكبُرهَا عشرينَ عَاماً ! ، و هَل سَتَكونُ مَسرورة إن كَبُرت و أَضحت خَادمة في بَيت زَوجهَا ! ..

كبُرت فَاطمة و أَنا لا زلتُ أُخيطُ لهَا العَروس تلوى الأُخرى، أُخبئُ القرش فَوقَ القرش كَي أشتري قطعة قُمَاش و أُخيطُ لهَا أَجمل عَروس في الحَي ..

كَبُرت فَاطمة و لازَلتُ أَجلسُ كُلَ يَوم أَمامَ بَاب المَدرسَة كَي أُعيدهَا إلى البَيت و أَحملُ في جَيب عَباءتي السَكَاكر و الحَلوى ، و أَشتري لهَا البقلاوة ..

كَبُرت فَاطمة و كبرتُ معهَا و أَنَا لا أَعرف حَيثُ في كُل فَصل تَأتيني بمَجموع كَامل لا يَنقصُ منهُ و لا عَلامة ، حَمدتُ الله بأن أَباهَا قد أَعطاهَا حُرية الرأَي و الرأي الآخر ، فَلهَا في قَلبه مكان لم يَصل إَليه صَبي ، هُوَ الذي كَانَ يُعَير أَولادهُ بعَد كُل فَصل دراسي :

ـ شنو أنتُو مخابيل ، فَاطمة تجيب عَلامَات كامَلة و أَنتو كَل وَاحد رَاسو يسَع سَاحة ما أحَد يَقدر يَجيب عَلامة كاملة ! ، ما عيب عَليكُم بنية تَسبقُكم ؟ ..

أَضَحكُ بصوت مُنخفض خَلفَ ستار المطبخ ، و فَاطمة جَالسَة بجَانب أَبيهَا و هُوَ يَخطبُ بأبنَائه خُطبة نهاية السَنَة الدراسية ، أفتَخرُ بهَا لأَنهَا قطعة من فُؤادي ، فَلم أَكُن أَتوقع أَن تَجني مَا كنتُ أَرغَبُ بجنيه ، و لكنَ الله يُعوض دَائماً و أَبداً ، عُقُوبة لهُم يَمنعهم من المَال شَهراً كَاملاً ، و لكنهُ رَحيمٌ بهم فيلغي العقوبة في اليومِ التالي ..

كانَ أبو حسين يَأتيني قَبل أَن يذهَب إلى أَشغاله و يَقول لي :

ـ هَذي فُلوس للويلاد ، أَعطيهُم و لا تُقوليلهُم أنها مني ..

أضحك بكُل قواي من طَريقة التَأديب الذي يتَخذهَا هَذا الرَجُل ، و بَينما فَاطمة كَانت تَذهَب مع وَالدهَا إلى سُوق الخُضَار كَي تُسَاعدهُ على الحسَاب و تَنظيم الأَمور المَالية ، فلَقد أَزاحت عنهُ هماً كَبيراً و عبئاً عَظيماً ، و عمت البَركة في رزقه ، و كُنتُ أشكُ بأَن زَوجي أَهبل و أرسَل اللهُ لهُ بنتاً لتُقيم قواهُ ..

لَقد عَاتَبهُ أَهل السُوق كَيف يأَتي بابنته كَي تَستَلم مَكان الحسَاب ، الإنَاث لَيسَ مَكانَهُنَ هُنَا ، يُردد العبارة التَالية : البَنَات أَفضَل من الأولاد ..

و بعد أَن تَنتهي العُطلة الصَيفية كَانت لا تَأتيني إلى البَيت بَل كَانت تَذهَب إلى السُوق لمُسَاعَدة أَبيهَا في الحسَاب و تَنظيف الخُضَار ، و بعَدهَا تَأتي لتَقفَ بجَانبي في المَطبخ و تَطهو و تُنَظف و تَقول : الله يَقويچ يُمَّة رُوحي ارتَاحي أَنا أَكمل عنچ ..

كُنَا نَعيشُ من غَير كَهربُاء ، فَلا نُور لنَا في البيت إلا قَلب فَاطمة و بَقايا ضَوء القَمر ، و إن اختفى القَمَر فلنا في فَاطمة أسوة حَسنة ..

تُشعلُ السراج و تَصعدُ إلى سَطح البَيت حَيثُ عَريشَة كَاظم و تَفرُشَ لهَا و لَبقية إخوتهَا و تَحملُ حقَيبتهَا المَدرسية و تُقَلب الكُتب و تَقرأ و تُنهك نَفسَها حَتى تُلقي بجسَدها الذي سَيتَبارزُ عَليه الرجَال يَوماً مَا ، و تَنَامُ كالعَروس في خدرهَا..

أُصَلي العشَاء و تَبدأ جَولتي حَيثُ جَميع من في البَيت على قَيد النَوم ، و أَنا قَلبي الذي لا يَنَامُ حَتى أَرى الجميع نيام ..

كَيفَ أَنامُ و فَاطمة لم تَنَام ..

لا تَعرف مَا هُوَ مَصدر النُور الذي يَتَسَللُ منَ السَطح ! ، أَهوَ نُور فَاطمة أم أَمواج البَدر الذي يأتينَا في مُنتصَف كُل شَهر !! ..

لن نَختلف لطَالما فَاطمة اتخذت أَخاهَا كَاظم جَاراً لهَا ، أُعدُ الشَاي ذو اللونِ القاتمِ مع قطعةٍ من البَطيخ الأَحمر ، و أعودُ إليهَا حَيثُ السَطح ذَاكَ المكَان الذي جَعلني أصعدُ إليه حَبيبي كَاظم ..

مُنهمكة تَحتَ السراج ، كَأَنَ الله أَشعل هَذا المكَان بنور وَجههَا ، تَرتَدي قَميصهَا السُكَري حَيثُ يَكبُرهَا بمقاس ، اشَتراهُ لهَا زَوجي أَبو حسين لعَلهَا تَنصَح و تَنضُج ، ولكنَ الغُزلان لا تَرتدي سوَى مَقاس وَاحد ..

ـ الله يَعطيچ العَافية يُمة !! ..

تَنظُرُ إليَّ و كَأنَني قَد سَرقتُ لهَا عَقلهَا ، وَجهٌ شَاردٌ حَيثُ الهَوى و وَجهي مُستَمسكٌ بنُورهَا ، قدَ أَحاطتهَا كُتبهَا من كُل جَانب تَكتُبُ و تُخَططُ و تَملأُ الوَرق بالحبر و أَرقام و أَحرُف و أَشكال هَندَسية و هَلُمَّ جَرا :

ـ أَنتِ جيتي يُمَّة !! ..

تَقفُ المسكينة تَحملُ عَني إبريقَ الشَاي و صَحن البَطيخ ، تَضَعهُ أَرضاً ، تُشَاهدُ التعَب الذي أَحاطَ بوَجهي ، تُذكرني بأُمي التي كَانت تَقفُ على قَدَمَيهَا من قَبل سُطوع الشَمس إلى حين غُروبهَا ، أَشعُر بأنهَا تُريد أَن تَفعل شَيئاً يُثبتُ وُجودهَا ، قَوية هي و تُعجبني قوتهَا ، و لكَنهَا قُوة حَق و عَدل بعَكس جَدتي التي مَاتت ظَالمة تَبكي رَجُلاً ظَالماً يُقالُ عنهُ أَبي :

ـ الله يَسامحچ يُمَّة ، لا تَتعبين نَفسچ ..

ـ لا تَعب و لا أي حَاجة يُمَّة فدوة القَلب عُمري .

تَخجلُ و تَتَكسَر من غَير أن تَطوي قُوتهَا و قوامها الشَديد ، في حيرة أَنا يا رب كَيف لهَذا الجمَال يُجَالسُ تُجَار الخُضَار في سُوق جُلّهُ رجَال !! ..

خَشيتُ عَليهَا كَثيراً :

ـ يُمَّة لا عَاد تُروحين السُوكَ ..

تُلفتُ نَظَراتهَا عَليَّ كَأَنَني تَكلمتُ كَلمة خَارج حُدود ما كَانت تُخطط لهُ أو لعَلني قد ارتَكبتُ جُرماً :

ـ يُمَّة إذا مَا وكَفت مع أَبوي و العَباس يبوكَوه ..

تَصدُمني بكَلامهَا ، تُقنعني تَارة و تَارة تَهبطُ عَلى قلبي الخَشية ، أَي الخَوفَ عَليهَا ، أَتركُهَا حَيثُ العلم ، فَأَنَا التي كَانت لَي أحَلامٌ كَأَحلامهَا فَلا أُريد أَن أَسُد عَليهَا قَابليتهَا للعلم ، أُريد أن أُعطي لهَا مَا مَنعتهُ عن نَفسي بحُجة العَيب و العادات و التَقاليد و العُرف ..

تَذهَب الأيام و تُقبل الأيام و أَنا أَنتَظرُهَا حَتى تَكبُر ، فَقبل أَن تنهي الإعدادية أَتى من يُريدُهَا زَوجة ، اهتزت الأرضُ من تَحت قَدمي خَوفاً ، خَشيتُ أن يَزوجهَا أَبوهَا و هي لم تَصل إلى حُلمهَا ، و مع أني لا أعرفُ مَا هُوَ حُلمهَا إلا أَنني أَراهُ جَميل كجمالهَا ، إنهُ صَديق لابني حُسَين و لكن حُسَين به شَيء من صَلابة الرأَي و إذا أراد شَيئاً أَخذهُ رُغماً عن كُل شَيء :

ـ يُمَّة أكو وَلد صَاحبي يَريد يَتزوج فَاطمة ..

ـ يُمَّة ذاك أَبوك و شُوف شُنو يَقول ، أو أختك فَاطمة مَا تَريد تَتزوج هسه..

تَسَمر حُسَين في مَكانه يُفكر مَاذا سَيفعل إن وَقف جُل من في البَيت مع فاطمة ، رَاح لفاطمة يُخبرهَا بالأَمر و أَنا خَلفَ النَافذة أَستمع إلى الحوار الذي يَدورُ بَينهُ و بينَ أُخته ،

و علت الأصوات في الغُرفة و أنا أضَحكُ كَيف يَخفض صَوتهُ في وَجه أُخته كُلمَا ارتَفع صَوتهَا :

ـ و العَباس هَذا الوَلد صَاحبك ما أجيبه يشتغل ويه أَبوك بالسُوكَـ ، و إذا شفته لتفل بوَجهه ..

يُجَن حُسَين بسمَاع هَذه النَبرة من القُوة في الخطَاب و الدفاع عن نَفسهَا ، يَبتلعُ غَيظهُ في جَوفه و يَبتلعُ ريقهُ و يَدهُ تَرتجف ، لو أَن لهُ الحَق فَي ضَربهَا لَضربهَا ، فَهي لهَا فَضل عَليهم بوقُوفها بجَانب أَبيهَا في السوق ، و أَبوهَا الذي أمرهُم ذَات غَضَب :

ـ الي أَشوفه يَمد إيدة على أَخت من خَواته و الحسين لكَطع إيده ، هَذولة مساكين ..

و من ذَلكَ اليَوم عمَّ العدُلُ في البَيت ، و أضحى القانون للذَكر مثل حَظ الأُنثى شَاء من شَاء و أَبى من أَبى ..

اسَتشَار حُسَين أباهُ في صَاحبه ، حكَ أبو حسين رَأسهُ كَأنهُ يَعرفهُ و سمع عنهُ ، يُفكر بالأَمر جلياً :

ـ شكَالت فَاطمة !! ..

ـ يابة تَريد تَاخذ بشورهَا !! ..

ـ يُبة ، أَنتَ تَريد تَعيش مع زُوجها لو هي ! ..

تَقتحمُ فَاطمة الجَلسة ، قَوية صَلبة كَأنهَا نَخلة ، صَابرة مُحتسبة كَأنهَا صَحراء ، مُتدفقة مُندفعة مُنَافحَة عن رَأيهَا بكُل جُرأة كأنها دجلة:

ـ يابَّة هَذولة فكَر مَا يَأكلون ببيوتُهم خبز ، و أَني مَا ريد أموت من الجُوع ، و بَعدين مَا يَعرف يَكتُب اسمة و لا يَعرف رَأسة من رَجلة ..

يَستشيطُ حُسَين غَضَباً و كَأن الكَاز صَبَ في تَنور جُنونه صَباً ، و يَضَحكُ أَبو حُسَين سَاخراً من ابنه مُثَبتاً لكَلام فَاطمة :

ـ الشُور شُور فَاطمة يابة ، مَا نَريد نَظلُمهَا مثل الي كبلنَا ، تَهبط وَيانَا المَصَايب و يقطع الله رَزقنا ..

قُوة حَق و مَنطق حكمة و جَمال أُنثى وَاقفة تُدعى فَاطمة ، لتكمل دراسَتهَا و تَرُد كُلمَا جَاء إليها رَجُل أَحمق ، و تُعطيه قيمتهُ الأَصلية :

ـ بَاچر تكبرين و محد يوكَف بوجهچ ..

كَبُرت فَاطمة حَتى أصبحت في الإعدادية ، كَانت العُيون مُعلقة حَولهَا ، تَمتدُ نَحو طُموحها ، و هي تُقاتلُ و تُكافحُ

بكُل مَا أُوتيت القوة من قُوة ، و تَتعبُ و تَنهارُ فَوقَ الكُتب و الوَرق مُنكَبة كَأنهَا تُريد أن تَلتَهم العلم بلُقمة واحدة ..

بلقُمة وَاحدة التَهمتني الوَحدة ..

و أَنا أُمضَغُ بينَ أضراس عُزلتي كَأنَني لُقمة لَحم ، و أُهرسُ بكُل مُرونة ، و أَتألَم و أَتأَذى و أُسحقُ و أُطحنُ و هَا أنا اليَوم أُرشُ و أُذرف في هَواء الذَاكرة ..

الذاكرة آلهة لا تَستوعب أَحداً ..

و لا أحد يَعلم ما تُضمرهُ لنَا ، تَرانَا و لا نَراهَا ، و لكن تخلقُ لنَا من المَاضي فَزاعة نُطلقُ عَليهَا أَشواق أَو أوجَاع ، و أَنت و مَاضيكَ فَإمَا في نَعيم مُقيم و إما في جَحيم مُخلدٌ إلى أَن يَرثَ اللهُ الأَرض و من عَليهَا و هُوَ أَرحم الراحمين..

فَاَطمة ، مُشَتاكَتلچ يُمَّة ..

الامتحان الأَخير لآخر فَصل في الإعدادية ، تَعتزلُ الكون بأكمله جالسَة جَاثمة خَلفَ الكُتُب و قَلمها الذي لطَالمَا قُلنَا لهَا أَن نَشتري قَلماً بدلاً من هَذا القَلم ، و لكَن تَأبى إلا أَن تَجتاز هَذا المضمار الصَعب إلا بهَذا القَلم ..

كَلمة سَهلة جداً عندما تَقول لي :

ـ أَنا أَعرف تَربيتي ..

و لَكن هَذه الفَتَاة قَد رَعت ذاتهَا بذاتهَا و لم يَقترب إليهَا أَحد، سَمعتُ بأنَ المَال الحَلال و دَعوة الأُم هي التي تَجعل من الحَصَاة جَبلاً يَستَضلُ بهَا السَائرون إلى العُلو ، و ها هي تَعلو و تعلو كَأنَها نَخلة و تَتَسع و تَتَسع و كَأنهَا وَاحة :

ـ يلا يُمَة أريد دَعوة تنوّرلي طَريقي ..

أَلتَفتُ إلى السَمَاء من مُواجَهة القبلة الشَريفة مُتَمسكة ببَركة آل البيت ، مُتشَبثة بالصدق ، أشعر بأَنَني أَستَلذُ بالدُعَاء ، نَكهة غَريبة تَفوحُ من مَكَان الطُهر و الطيبة ، تَسيرُ خَلفَهَا دَعواتي حَيثُ تُقلها الحَافلة إلى قَاعَة الامتحان ، مجبولة بالحُب و الإيمَان ، تَكسُوهَا عَباءتها السَوداء من رَأَسهَا إلى قَدَميهَا ، أَظهرت وَجهها المُنهَك منَ التَعب و سَهر الليالي ، تَطرقُهَا أشعَة الشَمس لتَزحفُ على مَسَامَات جَلدهَا ، تُغلقُ جَفنَيهَا كَي لا يَتسَرب الضَوء إلى محور النُور ، و تَرفعُ رَأسَهَا كَأنهَا تَقول :

أَنا التي لا تُخيفني الظُلمة ! ، فَكَيفَ بالنُور !! ..

يُلاحقُهَا قَلبي حَيثُ يُجفُ عطرهَا ، تُطاردُهَا عَينَاي حَيثُ تَركب الحَافلة إلى القَرية المُجاورة حَيثُ الامتحان ، و

لسَاني يَلهجُ مُتشَردقاً بالخَفق و اللهَفة و جَفاف الخَوف يَسطو على حَلقي :

ـ بحَق زَينب يا رَب تَعطيهَا مُرادَها ..

تُطبقُ السمَاء مُبتَسمة على شَمسها ، تَتَلبدُ الغيوم و تُعجن في فُسَحة العلو الشَاهق ، و تَنكمش و تَتَكاتَف و تَرتَعد و تَتَعاضد ، و تَنهمر على الأرض باكية كَأنهُ مَطر ..

بل هُوَ مَطر يَضربُ الأرضَ بلا شَفقة ، اسمٌ مُذكر يَنحدرُ من رَحم السَمَاء يُدعى المَطَر ، يَضربُ صَاجَ الأرض كَأنهُ يُريد أَن يَقتلهَا ، و لكن للأَرض قُوة أُخرى مَحفُوظة بحفظ الله ، تَتَماسكُ ذَرات التُراب مُتكاتفة حَولَ بعضهَا البَعض ، تَسُدُ الصُخور ثَغراتهَا و أَجواف الفَجوات المُنفتحة ، و تَنغلقُ كَأنهَا درعٌ يأبى أن يُقتَحم ، و تَهطل السَمَاء باسم الدُعاء و أُم فَاطمة ، من هُنَا !؟ ..

أَنا هُنَا ، هَذا مكاني الفَارغ من الانتظار ..

من تَنتَظري سَيدتي !؟ ..

فَاطمة ، ابنتي الكُبرى ، القطف المُتَسَرب من سَقف رُوحي، أخيطُ بهَا ضعفي ، و ألجأُ إليهَا إذا احتلني الخَوف ، و

أَنصُبُ بَينَ تَلة نُورهَا خيام وُجودي ، و لكن لم تَقُل لي لمَاذا! ..

لماذا!؟ ..

لَكَي أَحيى ، و سَميتهُ يَحيى ليحيى ..

تَأتي من بَعيد مُبللة بالطُهر ، تَركتُ القُدور و أَخمدتُ الحَطب من تَحتها ، و جَلستُ على جَمر التَرقُب أُقلبُ الغُيوم و أُجدفُ فَوقَ المَطر ، و هَا هي تَأتي مُبللة كَنَرجسة جَبلية مُغطَاة تَتَقاطرُ بسمة ، تَراني جَاثمة أَتقاطَرُ مَاءً ، فَتشَهق بصوت الخَوف و تُمطر جارية :

ـ يُمَّة ليش كَاعدة تَحت المَطَر ، مَا تُفوتين !!

تَمسَحُ وَجهي بكفيها ، تُمسكُ بيدي كَي أَنهض ، تُنجدُ لهَفتي لهَا ، أَرى فيها فَاطمة الزَهراء ، أنَا أُمهُا و هي أُمي ، مُتَيمة بهَا حَيثُ العَطش ، و مُتعطش لهَا حَيثُ التَصَلُب :

ـ كَلت أَكعد هنا أنتظرچ يُمَّة ..

تَشُدني بساعدها القَوي الذي لا يُكسَر ، كَأَنَني أَراها تَحملُ مع أَبيها في السُوق كيسَ الطَماطم و البطاطا و البَصَل بسَاعدهَا ، هَل كَانت تتعَلم في السُوق كَيفَ تُكونُ حُباً من بَعد قُوة ، أَما أَنَ العلم أَنجبَ لي قَوية من بَعد حُب :

ـ الله يَسامحچ يُمَّة ..

تتبعثرُ سَعادتها عندما تَراني بهَذه الحَالة ، تحاولُ أَن تُلملمُ ما بي من وَجع الانتظار ، تَخلعُ عَباءتها من رَأسهَا لتُخَيم بهَا على رَأسي ، يحولُ سواد العَباءة ما بَيننا و بين المَطر ، و نَدخُل الدَار مُسرعَات نضَحكُ كَأنَني أَنا و هي أَخوات من بَطن واحد ..

شَعرتُ بسعادة تَتَدفقُ من رُوحهَا ، تَغمرني و تُغرقني و تميتني و تُحييني ، انتابتني لَهفة ما بعدهَا من فَرح ، دُستُ صَدرهَا من غَير أن تَشعُر كأنَ بُركان ويَغلي ، كَقلبي حَال الانتظار ، يُباغتنا حُسَين بصوته أمَام بَوابة الدَار :

ـ شنو أُنتو مجانين !! ..

نضَحكُ بصوت عال ، و المَاء يَتقاطَرُ من جَدائلنَا ، كَأَنني تلكَ الطفلة التي تُحاول أَن تَستَعيد ضَحكتها بعَد أَن مَاتَ أبوهَا الظَالم ، هَا هي تَعود بكُل حُب ، تَعود مع عَودة فَاطمة:

ـ خَوفتيني عَليچ يُمَّة تَأخرتي ، ما كَلتيلي شنو كان الامتحان..

ـ أطمني يُمَّة ، ما يصير غير الي يرفع راسكُم ..

أجالسُ ظلَ عَتَبة الدَار كُل عَصر ..

تَمرُ النسوة مُتخمرات بالعَباءات ، تتسَربُ أَصوات التمتمة إليَّ ، أتسَربُ مع الصَوت الذي يُطَاردني ، خَفيفة أنا لم أرَ في قَلبي ثقل العُلو و رُؤية الحَال ، شَيئان لمَ يدَخُلا قَلبي ، الحقد و التَكبُر ..

تَهمسُ العَجوز في أُذن ابنتها التي تَحملُ طفلاً في حُضنها ، تُصغي البنت لهمس الأُم و تُشنفُ أسماعها ، يَبكي الطفلُ الذي في حُضن أُمه ، تُمسكُهُ الجَدة لأَن الَجدات أَحنُ حُضناً من الأُمهات :

ـ شَايفة هَذيچ العَجوز ! ..

ـ شبيها؟ ..

ـ هَذي أُم الدكتورة فَاطمة البصراوي ..

ينَفلقُ وَجه البنت مُتعجبة ، تَندهشُ حتى تَكادُ تسقُط عَباءتها من رَأسها ، تُخمرُ رَأسَها جَيداً كَي لا تَسقُط بحرف عَاطفي، أَكون أَنا حَرف عَطف إن لم يَكُن في هَذه المَدينة حدَيث ، و أَستمر بالجُلوس أنتَظرُ فَاطمة كَي تَعود مع أَبيها من قسم التَربية لكَي نَعرف مَا هُوَ التَحصيل الدراسي لهَا في نهاية السَنة ..

أَتجسسُ على المارة ، السَيارات القديمة ، الدَواب المُنهكة ، روث الأَغنام و البَقر و الحمير يُغطي صَفائح الطَريق ، الذُبابُ و عجاج الأتربة يتَصَاعد كُلمَا ارتَفعت حَرارة الشَمس ، يُدشنُ كَاظم جَلستي أَمام عَتبة الدَار :

ـ يُمَّة فوتي هسه يجون ..

لا أستَمع لهَم ، البيتُ يَتضَور جُوعاً و أنا أَتضورُ خَوفاً ، لَقد لقنهَا أبوها درساً إذا لم تَحصل على شَيء جَيد في هَذه الدراسَة سَوف يُلزمها البَيت ، بينَ اليَقين و الشَك هُنَا خَوف من المُستقبل و أنا جَالسة بجانبه نَحتسي القَهوة معاً ..

من بَعيد تَزعقُ أَحد السَيارات صَوتَاً كَأصوات الفَرح ، لا أعلم إن كان هناك عرس في هذه القرية ، و لم يُنهِ أَحد خدمته الالزامية ، و لكن كَانت السَيارة تَتَوجهُ إلينا حَيثُ الدار ، أضَعُ أَطراف أصابعي فَوق حَاجبي كَي أحجبَ أشعة الشَمس من النُفوذ إلى عَيني ، أُريد أن أرى جَيداً هَل هذه السيارة في طَريقها إلينا أم إلى مَكان آخر، و فعلاً وَصَلت السَيارة حَيثُ عتَبة الدَار ، أَذكُرُ بأَن أبو حسين عندهُ مُسَدس قد خَبأهُ تَحتَ تُراب فنَاء الدَار ، نَزَل مُسرعاً من السَيارة و نَزَلت مَعهُ فَاطمة ، أَمرها أَن تتوقف في مَكَانهَا ، دَخل الدَار

و خَرج مُسرعاً و رَاح يَضرب الرَصَاص في الهَواء الطَلق مُخترقاً السمَاء و الغُيوم و الشَمس و الفَضَاء :

ـ بَشَري يُمَّة !! ..

كَانَ وَجهَهَا مُحمراً جداً كَأنهَا جُوري و نَبتَ على منَافذ دجلة ، سَقطت على حُضني باكية مُبتسمة تُقبلني و أَنا لا أَفهم مَا يَجري :

ـ بنتچ جَابت أعلى مُعدل في العراق ..

سَقطت رُوحي أَرضاً كَما سَقطَ الحُسَينُ شَهيداً ، و رَاحت تُمسكُ بي و لكن أُغمي عَلي و لم أعرف كَيفَ سَوفَ أمسكُ نَفسي ..

غَابَ العَالمُ حَولي و سَقطتُ في النُور ، كَانَ النُورُ يَسطع و يَسطع حَيثُ مَقام الإمَام الحُسَين ، كَان هُنَاك جمع غَفير من النُسوة يَطفنَ حَول المَقام و المشهد كمشهد يَوم القيامة متَراكمٌ بالنساء ، سَألتُ إحدى النسَاء :

ـ شكو هنا ! ..

نَظَرت إليَّ المَرأة نَظرة الطيبة و الحُب :

ـ فَاطمة أُم حسين جَت هنانة ..

بدَأتُ أَجري و أَشقُ الصُفوف حَتى فُتَح لي شَقٌ كَبير ، خَشيتُ منهُ وَقتهَا و لكنهُ فُتح أمامي كالطود العَظيم ، بدَأتُ أَجري و أسقُط حَيثُ مَولاتي فَاطمة :

ـ يا مية هلا و مرَحبا بمولاتي ..

ـ أُم حسين أَجيت علمود أَباركلچ بنَجاح فَاطمة .

فَتحتُ عَيني فَجأة ، شَعرتُ بسيل مَاء يَسيل على رَقبتي مُختَرقاً ثَدياي ، انبجست أَجفاني فإذا بجَارتي سُلطانة أُم عُمر :

ـ الحمد للهَ على سَلامتَچ أُم حسين ، و مبارك لفاطمة الدَرجات العالية ..

تَأتي فَاطمة لتَضمني و تُجففُ كُل آبار الضَعف و الخَوف الذي تلقيته منذُ أَن رَأيتُ أمي تُضرب إلى هَذا اليَوم :

ـ و العَباس مَصدومة حيل يُمَّة !! ..

تَمسَحُ فَاطمة من وَجهي الدُموع ، تُجففُ مَا سُرب من مآقيّ بأصابعها الطَويلة البَيضاء النَحيفة التي تُشبهُ إحليل القَمر :

ـ صَدكي يُمة ..

كَان البَيتُ كَأنهُ عُرس و غَارق بالبَشَر رجال و نساء ، عُلقت الزينة أَمام البَيت و ذُبحَت الخراف أَمامَ الدَار و طُهي

اللحمُ و خُبزَ العَجين و ثُرد الخُبز و أُشبعت الأَمعاء من قَصعة الفَرحة التي أَتَتنا بها فَاطمة ، لم يتَوقف الطَبلُ و المزمارُ لَيلتها ، أُشَاهدُ أُبو حسين من بَعيد كَيف يُسَلم عَليه النَاس و يُقبلونَ رَأسهُ ، ذَاكَ الرَجُل بَائع الخُضار الذي كَان يَسرقهُ المُتسوقون يُقبلون رَأسَهُ اليَوم ، هَل رَفعت شَأنهُ أنثى يا تُرى ..

كَانوا يَخافونَ من الأُنثى ، يَخشونَ من أَن ينبلج عَقلها ، و هَا هي أَراهَا هَذه الليلة وَصلت إلى أَول لَبنة للنَجاح ، أَراهَا كَيف يَحُضنهَا الإنَاث يَتَضاحكن و يَتهامَسن في ليلة الفَرحة تأتيني بينَ كُل لَفتة و لَفتة لتَضمني ، لا أكادُ أصَدق مَا فعلت هَذه الطفلة :

ـ فدوة لكَلبچ يَحنينه ..

يَهرع النَاسُ إلى بيوتهم و نَهرعُ نحنُ حَولها كَي نَراهَا جَيداً، فنَحنُ لا نَعرف أن لدَينَا بنت سوى هَذه اللحظة ، نَتحولقُ حَولهَا يسأَلها أَبوهَا :

ـ يا جامعة تردين تدخلين بوية؟ ..

ـ الطب يابة ..

تُعلق الأُمنياتُ على بَوابة الدَار ..
و للقَلب حكاية أُخرى أَنا وَحدي من أَعرفُهَا ..
أَحلام صَغيرة بقدر هَذه الغُرفة التي أَطوي بها مَا تَبقى من عُمَري ، و لكن الأَعمَار تَمضي كَلمح البَصَر ، و تَسرقُ مني كُل ما أُحب ..
أُحبهَا تلكَ اللافتة التي كَتَبهَا كَاظم على بَاب المنزل ، فلَقد عَملَ في مَشتل الحَاج رضوان ثَمان أَشهُر كَي يَرفع لافتة تَليقُ بفخر هَذا البَيت ألا و هيَ فَاطمة :
منزل الدكتورة : فَاطمة البَصراوي ..
عُلقت بعد خمسة أَعوام من تَعب و إرهَاق و شَقاء خَلفَ مَشَارح بغدَاد في كُلية الطب ، كُنتُ أُصدمُ بهَا بَينَ كُل شَهر و شهر تَشتري جُمجُمة أو عظام مَيت كَقَفص صَدري أو ساق أو كَف ..
قَوية فَاطمة على مقَاس خَجلهَا ، و أَخجلُ منهَا من ارتَفاع خجَلهَا ، أُؤمنُ بهَا كَمَا أُؤمنُ بآل البَيت ، أَشعُر بأنهَا سَوفَ تَردُ لنَا حَقنَا نَحنُ مَعاشر النسَاء ، و أَمشي مُنخفضَة الرَأس شَاكرة لله تَعَالى عَلى هَذه الأُعطية الجَميلة و الهبة الرَقيقة ..

أُنذر لله تَعَالى أَن أَسير حَافية إلى مَقام أَبي عَبد الله الحُسَين منةً لله على هَذا الفَضل الذي أعَطانَا إياهُ ، لم تَخرُج الشَمس بَعد ، الفَجرُ لهُ عَبق روائح التنور التي يُخبز بهَا الخُبز ، تَتَطاير الأدخنة من فُوهات المَنَازل ، تُوقد النَارُ في أَفرانهَا ، يُعجن العَجين ، و يتَطاير عَبق أرغفة الخُبز الطَازجة ..

إنهُ فَجر طَازج نَعرفُه حَقَ المَعرفة ، مَا أَشرقت شَمسٌ إلا و كُل شَيء جَاهز و مُعَد للحَياة ، الخُبز و اللَبن و القَهوة و الإفطار ، يستيقظ كُل من في الدَار و كُل شَيء جَاهز و يَنتظرهُم ، الجَميع يتَمَطى كَما الشَمس ، الكُل يَتَثاءب كَما الصَباح ، و أَنا المُرهقة التي أَعددتُ نَفسي للمَسير حَافية حَيثُ المَقام ، يَقومُ برفقتي زوجي أَبو حسين تَبيتُ في بيتنَا فَاطمة قَبل بيومَين و تَستَيقظ كَي تَنطلق إلى بَغداد حَيثُ كُلية الطب :

ـ صَباح الخَير يُمَّة ..

ـ يا صَباح الخَير و الحُلو و الطَير يَا يُمَّة تعَالي يُمَّة تريكي معانا قَبل مَا تَسَافرين لَبغدَاد ، أَنا رَايحه أَجيب الشَاي ، هم جبت جبن ..

مُنفلقة كَوردة جُورية تَتَمطى كَقصَب سُكر :

ـ تعبتي نَفسچ يُمَّة حَيل ..

التَعب خُلق مَعنا أو لعَلهُ لنَا ، نَحنُ ضَحَايا أَرحَام القَرن العشرين ، أرحَام لم تَرَ من الحَياة سوى جُدران البُيوت و أَلوان القُدور و صَخب الأَعراس الكَاذبة ، نَحنُ من بحَاجَة إلى عُرس صَادق حَيثُ تَربطُ كُل الأَطراف عَلاقَات الحُب..

الحُب لا أَعرفهُ أَبداً ، لعلهُ يَعرفُني أَنا ، لعَلنَا التَقَينَا ، بَل لم نلتقِ ، بَل سَنلتقي ، التَقينَا عندما عَرفتُ بأَنَ لي أبناء بارين مُحبين مَجبولينَ بالطيبة و الطُهر و لكن يا تُرى أَينَ هُمَ الآن و مَاذا يَفعلون ..

بعَد كُل حَفل استحمام أَلفتُ الغطَاء على وَجهي و رَأسي و أَهرعُ بالجَري نَحوَ غُرفة فَاطمة كَي لا يدخُل جَسدي البَرد ، حَيثُ سَريرهَا ، وسادة الحَبيبة ، ستَائر القَريبة ، غطَاء الحَنونَة ، خزانَة الطَبيبة ، المَكتبة العلمية ، و أَنا الطفلة الصَغيرة المُتَعلمة ..

آه .. مَا أَقسى هَذه التَنهيدة ، تَنهيدة مُضَرمة بالوَجع و الفَراغ ، مُتعبة من الخُروج وسَحب هَواء الشهيق ، مُغمسَة بعطر صَاحبة المَكَان ، أَشتَاقُ لصوتهَا ، هَل تُبادلني ذَاكَ الشُعور يا تُرى !! ..

إنَ هَذه الجُدران تُبادلني قَسَاوتها ، و هَذه النَوافذ المُشرعة للهَواء تُبَادلني آهاتي ، وللأَبواب حدَيث الأَحباب الذينَ ذَهبوا و لم يَلتَفتوا خَلفهم ، فكَثير من الأَحيان أَقولُ في بئر قَلبي :

ـ هَل نَسوا أُمَهُم يا تُرى !! ..

ليسَ من المَعقول أَن يُربى أبنَائي على القَسوة ، أَنا التي أَعرفهُم جَيداً ، أَختبرُ مَدَى حَنينهُم ، أقيسُ صَدَى الحُب فيهم، أُجدفُ مَعهم إلى شَواطئ الصَمت كَي أَكشَفَ مَا يَدورُ في صُدورهم ..

صُدورهم مَحشُوة بالوَرد ، مُتَشَابكة بالحُب ، مَجبولة على السَلام لأَنَني أَنا التي تَقعُ عَيني على تلكَ الشَاهدة التي أَراهَا من بَعيد حَيثُ كُتبت عَليهَا :

أَهلاً و سَهلاً بكُم في مَدينة السَلام ..

لا أَلتَفتُ إلى الدَار بل أَسدلُ عَباءتي على رَأسي يُرافقُني زوجي سَيراً على الأَقدام حُفاة حَيثُ قدَاسة الأَمكنة ، فَلا مَكَان أَقدس للإنسَان من قَلبه إنَ كَانَ طَاهراً و نَظيفاً ، أُم عمر تَجري خَلفنَا لا أَعلم مَا بهَا لعَلهَا جُنتَ ، تتكتلُ و تَتَكبتلُ حَولَ بعَضهَا كَأنهَا بطَيخٌ و ينحدر :

ـ هي يَا أُم حسين !! ..

صَوتُهَا كَأنهُ رَعد يَهدُ و يَكدُ و يَصعق كُل من لهُ أُذُن ، سُمرة تُغطي وَجههَا ، أُحبهَا على بَسَاطَتهَا و طيبتهَا ، تَفرحُ لفرحي و تَجزعُ لحُزني :

ـ اي يا خَيتي !! ..

ـ تَلهثُ كَأنهَا فقدت شَيئاً ، أبتَسمُ عندما أراهَا على عجلة من أَمرهَا ، تَجلبُ لصَدري السَلام :

ـ وَين تُروحُون ! ، و حَافية خُذي البسَي نَعالي ! ..

يَضَحكُ أبو حسين عَليهَا ، كَانَ العَرقُ يتَصببُ من جَبينهَا ، و عَباءتهَا كَصَاج أَسود يصلحُ لخَبز الخُبز :

ـ نَوينا نَمشي لَمقام أَبو الفَضل حفاي ، تُروحين وَيَانَا !؟

وَزنُهَا ثَقيل جداً ، تَدخُل قَلبك بمُجرد أنَهَا أَقبلت لكَ ، مُشبعة بالسُمرة ، فَقيرة الحَال في أَغلب الأَيام نتناول غَداءنَا سَوية يلتَفُ أولادي و أَولادهَا حَول قَصعة واحدة ، يهشُمونَ الخُبز و يأكلونَ الثَريد ، و يَسكُبونَ المَرق ، بينَنا و بينهُم صلةُ جوار و جدار مُشَقق نَراهُم من خلاله و يَرونا من خلاله ، و كلا الخلالَين مَكشُوفين على بَعضنَا البَعض ، و لكن جملنَا الستر .

جَمَّلنَا السترُ بالحُب ..

ستَارٌ تَخلى عَنهُ أَهل الرَذيلة الذينَ يتَخذُونَ الدين مَطية للحقد و الكَراهية ، فميزانُ آل البَيت ميزانُ عَدل ، و من دَخلَ مَقام الحُسَين فهوَ آمن ، و من دَخَل مَقام العَباس فَهو آمن ، و من دَخلَ مَقام الزَهراء فَهوَ آمن ، و من دَخل مَقام أَمير المُؤمنين عَلي فَهو آمن ، و لكن يا تُرى من أَين أَتى كُل هَذا الكُره !؟ ..

أبالسَة على شَاكلة عُلمَاء ، وَضَعناهُم في غَير مَكَانهم فَأفتوا بغَير علم فَضلوا و أضَلوا و جَعلونا ضَحية تَتَقاطَرُ دَماً بسَبب ضَلالهم ..

لا أَستَطيع أَن أتَصَور إنسَان يَقتلُ إنسَاناً لأَسباب تَافهة ، أَسباب من المَاضي ، و الحَاضر جَميل به و بأَهله ، جَاراتي جَميعُهن ينقُلنَ على لسان سُلطَانة أُم عُمر قَولهَا الذي أَكادُ أَسمعهُ كُلَ يَوم :

ـ أَحسن جَارة و أُخت و حَبيبة أُم حُسَين ..

أُحبُهَا بقدر هَذه المَدينة ، و أَعلم بأنهَا تُكِنُّ لي حُباً مُضرجاً بالطيبة و العَفوية :

ـ أُم حسين الطَريق طَويل حَيل ، خُذَي وياچ هَذا الكيس بيه كليچة و شكر و مَاي ..

جَميلة بُكَل عَفويتهَا ، سُلطَانة بكُل نَخوتهَا :

ـ اسمَعي أُم حسين ، الله وياكُم ، لا تشيلين هَم الولاد أَنا أَطبخَلهُم و أَحرس البَيت ..

أُلقي بكُل مَحَبتي على حُضنهَا و أُعانقها مُعانَقة الأُخت لأُختهَا ، أُخت أَنجبتهَا لي المَواقف و الحَال العَسير الذي لاقيناهُ فيمَا مَضَى من قَسوة حَال :

ـ مَا تقصرين يا أُم عُمر ..

نُوَدعُ بَعضَنَا البَعض و نَنطلقُ إلى أبي عَبد الله الحُسَين ، نَسيرُ حفاةً و النذرُ يُحلّقُ مع أَشعة الشَمس حَيثُ القبول ..

أَسيرُ فقيرة الحَال أَذكُر هَذا الطَريق جَيداً ، أَعشَقُ المشَي عَليه ، لهُ في القَلب نَبضٌ آخر و نَكهَة أَجمل ، و أَنقى ما في الصدفة بأَنَني كُنتُ أَسير هَذا الدَرب حينما كُنتُ حُبلى بزَينب بالشَهر السَابع ، لَيسَ الوَقتُ وَقتَ ولادَة ، و لكَن القَدر إذا أُمر أتَبع ما أُدلي عَليه ..

كُل الطُرق تُؤَدي إلى الله ..

و لكن كَانَ طَريقي مُتعباً و مُرهَقاً و لَذيذاً ، أَسير كَي أَنسى، يَتخللُ بين أصابعَ قَدَمي الحَصَى و الأَتربة ، أَشعرُ بلذة الأَلم، تَتَفسخ قدَماي كُلمَا اجتهدتُ بالسَير أكثر وأَكثر، على جَنَبات الطَريق تَصطفُ طَاولات و خيم قد نُصبت لمَن أرادَ المَسير حَافياً إلى صَاحب المَقام ..

و كُلمَا اقتربنَا من المكَان كُلمَا كَثُرت الرُؤوس و الأَعناق و الأَفواه تَلهث و تَتَسَارع دَقات القَلب ، و يهبط و يعَلو الصَدر بشَدة ..

كُنتُ حُبلى بهَا ، إنهَا زَينب ، سَبعة أَشهر و هي في بَطني ، و لم تُؤذني أَبداً ، لقد نَسيتُهَا كَما أَنسَى القرش عندما أضَعهُ بَين ثَديي ، نَسيتُ بأَنَني حُبلى بها ، و لكن زَينَب لا أَنسَاهَا مَا دُمتُ حَية ..

إنهُ البَطن الرَابع ، في السَاعة الرَابعة عَصراً ، في اليَوم الرَابع بَعد عاشوراء ، في المَوقف الرَابع قَبل دُخول المَقام ، إنهَا لَيست صُدفةً بل إنهَا مَقامات كُنتُ أُحصيهَا فَعرفتُ بأنَ أُمنَا زَينَب تَأتي في المَرتبة الرَابعة بَين مقامات أهل العشق..

كُنتُ أرتَجفُ عندما أسمع بَهذا الاسم ، كَان اسمٌ مُشتَعلٌ بالمظلومية ،أَخشَى أن يَكون لدي بنت أُطلقُ عَليهَا اسم زَينب ، اسمٌ بَقدر مَا به من قُدسية بقدر مَا به من خَشية في قلبي .. كُنتُ في العَاشرة من عُمري ، و بعد أَن تُوفي أبي و جَدتي كَانت تُجارونَا شَابة صَغير سنُهَا ستة عَشر عَاماً كَأنها سَقطت من رَحم النُور و وَقعت في هذه المَدينة سَهواً ..

لا شَيء يأتَي سَهواً أَبداً ، كُل شَيء مَخلوقٌ بقدر ، و مُطهو بقدر ، و أنَا التي طُهَيتُ بقدر الحَياة حَتى أوصَلتني إلى أن أكونَ وَحيدة كَصَخرة عَاجزة عن إزَاحة الرمَال عن وَجهي..

و كَانت زَينب تَأتينَا بعد كُل عَصر لأَنها تُحبُنا ، و خُصوصاً أَنا ، شهية لم تَنضُج بَعد ، و لكن العُيون قَد أشهرت شَهواتهَا تُريد أَن تَتَذوق منهَا شَيئاً أو تَقضمُ منهَا لُقمة ، كَان يُحبهَا جَارٌ لنَا لا أَحد يَعرفُ عن حُبهما سوى الله ..

و لكن اللهُ له حُدود على أَرضه فَالحُبُ في شَريعته مَسنونة الطَرفَين ، فإما حُب يَذبح ، و إمَا حُبٌ يَقتُل ، و في قَانُون الحُب أَهل الحُب مساكين لأَن العَقل يَكونُ مُغَيباً تمَاماً و لا يُوجد إدراك لمَا يَصنعهُ المُحب و المَحبوب ، و كَانت زَينب

تَعشَقُ ذَاكَ الفتَى و هُوَ يَذوبُ عشقاً بهَا حَتى تَفطر قَلبهَا و أَبكَاهَا الشَوق ، كَانت تُخزنُ دُمُوعها حَتى تَأتي أُمي و تَبكي بُكَل مَا أُوتي العشقُ من أَلم ..

طُرقَ بابُ أَهلهَا في يَوم صَيفي ، وُضعت الجمال و البغالُ و الأَحصنة أَمامَ البَاب ، كَانَ هُنَاكَ وُجوه لم تُلوثهَا الحَياة مُشبعة بالغنى و النعمة ، و لكن هَذه النعمة مُقَيدة بالمَال الذي في مَخازنهم ..

أَقبلت زَينب تَطرقُ البَاب بقوة ، كَأنهَا جُنت ، وَجههَا قد ابتلعتهُ صُفرة ، تَكادُ ترتطمُ أرضاً من الخَوف ، مَفاصلهَا تَصَطكُ ببعضهَا البَعض ، خَرجت أُمي لتراهَا :

ـ شكو؟ شنو الي صار يا زَينب !؟ ..

أُمي تَعرف مَا معنى أَن تُظلم المَرأة ، و لكن لا تَعرفُ من الحُب سوانا ، سَبعة بَنات و الثَامنة أتت ظُلماً و قَهراً :

ـ جَوّي يخطبوني ، و أَني مَا رَيد يا حنينة ، آني أحب محمد وُلد جَارنَا ، و أبوي يريد يزوجني لرجال مليان !!

مَا الذي أريد ..

مُنكسَرة بكل جَوانحها تَتَفطَرُ أَلماً ..

أَتوا إليهَا كَي يَشتروها من والدها بثمن غالٍ ..

وَالدهَا الذي يَذُوبُ من قَلبه شَمع الجَشَع ، لا تُغريه وُجوههم بقدر ما تُغريه جُيوبهم ، كَانت الجُيوب و الصَناديق و الجمَال و البغال مُترسة بالذهب و الفضَة ، و مع أَنَ زَينَب أَغلى من الذَهَب و الفضَة إلا أَنَ الطَمعَ قَتَلَ أَهلهَا و جَردَ قُلوبهم من الرحمة ..

عندما تَلمع المَراهَم يَبتَاعُ المَغشُوش بهَا أَغلى ما عندهُ ، و أُمها آه من أُمها كَم هي تُؤلم مَا لا يَعرف الأَلم ، دَائماً شَاحبة تُجَالسُ الأرصفة التُرابية قَبل كُل غياب شَمس ، تَهربُ من ضَجيج المنَازل إلى ضَجيج الشَوارع ، إلا أَن ضَجيج الشَوارع خَال من أَية مَسؤولية و العَكسُ صَحيح ، وجهها شَاحبٌ مَائل إلى السُمرة ، لا تميزهُ بينَ الصُفرة و السُمرة ، و لكنهُ غَارقٌ بالأَسَى ، على مَا يَبدُو بأنَ نَصيبهَا كَنَصيب أختهَا التي زَوَجتهَا لَرجُل تَكرههُ ..

يُقَال بأنَ أُمهَا تُوفيت في سَاعة الطَلق ، أَي جَدة زَينَب ، و يُقال أَيضاً بأنَ خَالة زَينَب خَرجَت من بَطن أُمهَا و لم تَعرف

حَليبَ أُمهَا ، و رَعتَ أُم زَينَب خَالتَها أَي أختها ،و غَرقَت الفَتَاة بحب شَاب من عَجَائب الأَدب و النُبل ، و لكن الأُخت الكُبرى أَقنعت بقية الأخوة أَن تُزوج إلى رَجُل ثَري يَكبرُهَا سناً بثَلاثَينَ عَاماً ، و كَمَا يَقول الله تَعَالى :

و تلكَ الأَيامُ نداولهَا بَينَ النَاس ..

وَقعت زَينب ضَحية أُمهَا و فعلتها التي ارتكبتها في المَاضي ، فَالمرأة هُنَا لَيسَ لهَا رَأي و لا شَأن البَتة ، و أُم زَينَب لَيست رَاضية بالعَريس الجَديد بَسبب الشَيب الذي لم يترُكَ و لا شَعرة سَودَاء على رَأسه ..

تَعرفُ الأم بأنَ ابنتهَا وَقعت في حُب ابن الجيران ، و تَعلم علم اليقين بأنَ ابنتها لن تَرضَى بسَبب الغَرق في العشق إلى المُنتهَى ، و لكن يَغيب المُنتهَى و صَاحبتهُ و أَهلهُ و كُل مَن حَوله عندما تُفتحُ الصَنَاديق و يَبرقُ الذَهب فَوقَ العيون الشَرهة ، إنهَا شَراهة أشباه الرجَال ، و إنَ كَانَ والدُ البنت عَطشاً للمهور و استرداد مَا أنفقهُ طيلة حَياته على ابنته فَلا غَالبَ عَليه إلا الله ..

هُوَ الله الذي يَمدُ للظَالمينَ مَداً ، و يَجعلهم قَاع صَفصَفاً ، و يَنهشَهُم كَعصف مَأكول ، و لكن لكُلَ عُقُوبة قَدر و قِدر ،

مُستَو على عَرشه يُشَاهدُ الظُلم الذي يَلحقُ بَبنات حَواء على أَرضِ الإنسانُ بهَا مُخَير في كَفة التسيير ، و لكَنهَا هيَ الأَرض التي تَسير و تَدبُ دَبيبهَا على بُؤس المَجرة كَي تَشهد على مَا أَزهَق ابن آدَم من مَظَالم و أَرواح ..

بَاكية شَاكية تَذرفُ دُموعها ، تَدبُ على الأَرض كَأنهَا مَاعز عَرفت مَوعدَ ذَبحهَا و سَلخها و غَليهَا ، تَسحُ العَويل و تَنثُرُ التُراب على رَأسهَا ، تَجُوبُ الدُموع ثَغرات وَجههَا و تَتَشَردقُ بكُل غَصَة و كُل شَهقة ، و تُسعفها الصَفعة التي تَلقتهَا من مظالم سَابقة هي ليسَ لهَا أَيةَ عَلاقَة بها ، و لكن الأَبنَاء ضَحَايا الآباء ..

إنهُ ثَمن الجُنون و الظُلم ، تَبكي مَعَها أُمي ، تَشعُر بتَلكَ الصَخرة التي سَقطت في قَفصهَا الصَدَري ، هُنَاكَ نسَاء تَكذب كَي يغطينَ مَا عَليهن من سُموم مَاضية ، يُفتَحُ البَاب أو لعلهُ يُخلع ، فَلم نَعُد نُمَيز مَا بينَ فَتح البَاب و خَلعه في ذَاكَ اليَوم ، كُنَا نتَضَورُ جُوعاً يَومهَا ، و أُمي جَالسَة تُهونَ علَى مُصَاب زينب ، كَانت الأَفكَارُ تَنصَبُ في عَقل زَينَب صَباً ، و لكنَ البَاب اقتَحمهُ ظلٌ عَظيم خَيم على ظُلمَة البَيت:

ـ بنتي زَينب هنانة ! ..

ـ اي كَاعدة وية أُمي بالحُوش ..

تَتَمايلُ كَأنهَا جمَل ، أَو لَعلهُ كَسرٌ قَديم أفقدهَا تَوَازنهَا ، في أسفل شَفتَيهَا يتَوقفُ هُنَاكَ وَشمٌ أَزرق يَميلُ إلى الخُضرة مَنحوت كالشَمس ، و نُقاط من بَين حَاجبيهَا إلى أَعلى جَبينهَا، كَانَ الحَلقُ يتَدلى إلى كَتفهَا ، تَرتَدي سَواداً لَيسَ حداداً و إنما ستراً و خَوفاً من الله ، إنهُ سيناريو السترة و الكَذب على الذَات ، كَذب مُعلب و مُركَب و مُعَد لأَي مَكان و زَمَان ، تَسيرُ كَأنهَا سَتَقعُ جَنباً ، بيدهَا سُبحة مئوية قد خَبأَتهَا في عَباءتهَا ، تَتَدلى كُلمَا مشت شَوكاً ، تنكمشُ عندما يَدخلُ الهَواء بينَ جَنَبات عَباءتهَا ، تَخافُ الهَواء و تَخشَى من النُوَر ، و تَسير ، و لكنَ عَينهَا الكَريمة جَعلتهَا أُنثَى خَبيثة نَخشَى الاقتراب إليهَا كُلمَا لاحَ ظلُهَا :

ـ هَلا بالحَجة ، تَفضلي يُمَّة ..

تُرحبُ بهَا أُمي و تَقومُ من مَقامهَا كَي تُجلسهَا بجَانبها ، و لكن مَقَام العَجوز في بيوت الضيافة ، لم يَكُن لَدَينَا بَيت ضَيافة و لكن كَان عندنا غُرفة جَدتي المُدرجة بالسجَاد

الفَارسي و السُيوف و غَير ذَلكَ من وَسَائد و فُرش و فراء ثَعالب :

ـ تَفضَلي ، أَريد أَفتح الغُرفة نُكَعد جُوة ..

تَلتَفتُ إلى أُمي ، نَنكمشُ خَلفَ عَباءتهَا ، نَخشى النَظَر إلى وجهها الذي يَتَقاطرُ منهُ المَظَالم ، سَواد حَالك يُخَيم عَليهَا ، و لكن نُور أُمي كَانَ يُشبعنَا أَماناً :

ـ تسلمين خَيتي ، نَريد نُكَعد هنا ..

ترضَخُ أُمي لقرارهَا ، لا تُريد أَن تَزيد فوقَ النَار كَازاً ، تَصمت و تَتركُ الأُم مع ابنتهَا رُبمَا هُنَاك حَديث خَاص :

ـ أَنا أَكَوم أَعمل چاي ..

طفلات نَحنُ لم نَبلغ الأَمانُ من بعد أن مَاتَ أَبونَا ، نَتخفَى خَلفَ سُور حَجري نُريد أَن نَستمع مَا يَدورُ حَولَ الأم و ابنتهَا ، أبتَلعُ نَفسي في بَطني و أَكتُمُ مَا به من شَهيق و زَفير:

ـ اسمعي يُمَّة ، أَنا و أَبوك نَريدلچ الخَير ، ما بقى وَقت للتفكير هَذا نَصَيبچ و اجَا يَمنة ..

لَيسَ هُنَا وَقت للتَنفُس ..

هُنَاكَ وَقت وَاحد لإصدار القَرار ، و على زَينب أن تُنَفذ رَغبة وَالدهَا ، و لكنَّ أُمهَا لا تُريد و مع ذَلك ، فإن الفُلوس تغيّرُ النُفوس ، وَقفة أَمام الضَمير يَقفُهَا قَلمي هُنَا بَعد عَامين من العُزلة أَسألُ سُؤالاً وَاحداً لأَي شَخص يُحبُ الحَياة حُباً جماً :

ـ مَاذا تَرجو من هَذه الحَياة بعد أَن يتَخطَى سنُكَ الأَربَعين!..

مَشغولة النَاس بجَني الأَموال ، و منهَكة بإعمار الأَبنية ، و مُتعبة من السَرقة و الفَسَاد ، و مُستفحلُ بهَا الظُلم ، يسَيرُ البَشَر مُتَجبرُونَ مُتبخترونَ مُتَقاتلونَ على الوُجود ، وهَا هُوَ الوجود بَاق و هُم يَتَهافَتونَ إلى القُبور جَميعاً و فُراداً ..

تَبكي زَينب ، و نَشعرُ بهَا و لكن لا نَستَطيع أن نَفعل لهَا شَيئاً سوى أَن نُخففَ عنهَا و نُجَففُ لهَا دُموعها ، آه عَليهَا سَوفَ تُزوج من ذَاكَ العَجوز و سَوفَ تَبكي الدَهرَ بأَكمله و هي تَندُب حَظَها :

ـ أَنا مَا اريد أَتزوج ذَاكَ الرجَال يَمَّة ..

تُقفلُ أُمهَا حَاجبيهَا ، تَعلو الحُمرة على وَجههَا يَتَغير طَعمها و لونهَا و رَائحَتهَا ، تَهبُ في وَجههَا كَي تُعيد هَيبتهَا لنَفسهَا ، نعم هَيبة و لكن نَاقصة كَطمعها تَمَاماً :

ـ رَاح تَتَزوجينة و ما يَمشي غَير شُور أَبوچ ..

تَلطمُ على وَجههَا ، و تَندبُ تَعاستَها ، و يَرتفعُ صَوت عَويلهَا ، تَأتي أُمي تَحملُ الشَاي بيدهَا وتَهتزُ الكُؤوس بينَ أصَابعهَا ، يتَدفق سَائل الشَاي و يَمرُ على ظفرهَا ، أُمي لم تَعُد تشعُر بشيء حتى لو سَقط عَليهَا زَيت مَغلي :

ـ طَولي بَالچ يَا زَينب ، أُمچ تَريد مَصلحتچ ..

هَل أُمي انقلبت على زَينب ! ، لم أَعُد أَعرف من الذي مَع من ! ، و من هو ضد من ! ..

تَشربُ أُم زَينَب الشَاي بسُرعة ، في عَجَلة من أمرهَا فالبيت مُمتلئ بالضُيوف ، الجَميع يُريد الجوَاب منهَا ، كون آثار الأُنوثة بدت جَيداً على جَسدهَا ، الأثدَاء وَاضحة ، المَلامح مَنفُوشَة ، الشفاه مُتَورمة ، الجَسد مُعد للشَهوات ، الطُول يُسَاوي عُلو النسَاء في هَذه القَرية ، و حَبيبهَا لم يأتِ من العَمل بعد ، هي تَنتَظرهُ بفارغ الصَبر ، و الأُم تنتَظرُ جَواب ابنتهَا ، و الأب يَنتَظرُ جَواب زَوجتهُ ، و الضُيوف

يَنتَظرونَ جواب رَجُل البيت ، و البَيت يَضجُ بالبَشَر ، فإن وَافق أبوها فسَيأَخذونهَا مَعهُم هَذه اللَيلة ، و الليلُ قَارب على المَجيء و لم يَأتِ حَبيبهَا مُحمد ، تَدخلت الأُم كَي تُلقي في وَجهها آخر قُنبلة كَلامية :

ـ اَسمَعيني زَين ، آني أَنتَظرچ بالبيت لا تَتَأَخرين ، أَريد أجهزچ و تَتَيسَرين مع الرَبع ..

تَشربُ أُمهَا مَا تَبقى من الشَاي بكُل عَجَلة ، تَقفُ كهبوب النيران ، و تَتركُهَا للسَراب كَي تُباكي الضَباب ، و الضَباب لم يأتِ بعد ، كُنتُ أَتوقع أَن تَهرب ، و لكن أبناء العشَائر هُنَا سَوفَ يَقتلونهَا شر قَتلة بأَيديهم كَي يُغطوا شَرفهم و يمشوا بَينَ القَبائل مَرفوعين الرأس و كُل هَذه المَعَارك من أَجل أُنثَى قد تَجلبُ لهُم العَار إن هَربت فعلياً :

ـ شُنو تَريدين اَسوي يَا جَارة ..

تَضَعُ أمي رَأسهَا أَرضاً ، أُمي تلكَ الجَارة التي كَانت تُضربُ حَتى المَوت و لا يَستَطيع أن يُنجدهَا أَحد من تَحت مخَالب زَوجها الظَالم ، إنهَا الجَارة التي تَحررت من عُبودية الرجال إلى عُبودية مُشَاركة نسَاء الحَي مآسيهن ، إنهَا جراح مُتَرَاكمة في قَلبهَا تَخشَى أَن تُخرجهَا للغَير ، و

هي تَعلم علم اليَقين بأنَ الغَير يَعرفونهَا جَيداً و يَعلمون مَا جنتهُ من قهر ، كنتُ أَفرح عندما أستَمع بأَن أحد رجَال المَدينة يَموتُ مَرضاً أَو دَهساً أو يَقع من فَرسه أو غير ذَلكَ من نزَلات قَدَرية ، أعرفُ بأنَ لدَيه نسَاء و زَوجة و بنَات و غَير ذَلكَ من مَحَارم ، تُحدثني نَفسي يَومهَا و عندما أُشَاهد جُثَتهُ فَوق الأعناق تُسَاقُ إلى المَقبَرة و يمشيه الرجَال و خَلفهُ النسَاء تَندبهُ و تَبكيه و تَلطمهُ و تَشقُ الجُيوب بأن ثَمة ظَالماً قد اختفى ..

هَل هَذا النَدبُ و البُكَاء و العَويل هُوَ إعلان فَرح ! ، بتُ أسأل عن ذَلكَ الأَمر ، و لكن الحَقيقة وَاضحة تَماماً كَمَا هَذه الشَمس ، تُطلقُ أمي في أُذن زَينب كَلمَات قلائل :

ـ بَنيتي زَينب ، خَلاص مَا عاد تَنفع الدُموع يُمَّة ..

أي يَجب عَليهَا أن تَرضخ للأمر الوَاقع و تُسلم أَمرهَا لله ، و لكن لم نَكُن نَعلم بأنهَا سَتُسلم لله أَشياء أُخرى ، لم نَعرف بأنَ الوَجع سَوفَ يُوصلهَا إلى شَيء لا يُتَوقع ! ، لم نَعُد نميز مَا يَجري على سَطح هَذا الكَوكب ! ..

على سَطح الكَوكب هُنَاك وَطن يَجثُم عَليه بَيتنَا ، و من ثُم تُجَاورنَا زَينب و أَهلهَا ، نَضَحكُ كُلَ يَوم و لم نَعتقد بأننَا

سَوفَ نَفقدهَا كُلياً ، و بالفعل ذَهبت زَينَب إلى بَيتهَا و أَلقت نَفسهَا في البئر بَعدما كَانوا يَعتقدونَ بأنهَا هَربت ، اختفت زَينب تَماماً ، يومٌ ولَيلةٌ من البَحث و بعد أن عَطشَ القَوم أَلقوا بحبلهم في البئر و سَحبوهُ و كَانت المُفاجَأة ، زَينب مُبتَسمة سَاخرة للحَياة و المَوت و للقَدر ..

انتهت الحَياة ، صَمتت أُمي من بعَد مَوت زَينب تندبُ حَظهَا أَم تَندبُ زَينب فَلم نَكُن نَعرف ، و لكنَ أُمي دَخلت في دَوامة الصَمت و الشُرود من بَعد أَن دُفنت زَينَب أربعة أَو خَمسَة أشهُر ..

لم تَرتَدِ السَواد على أَبي و لا على جَدتي ، رَبطت رَأسَها بعصَابة سَوداء و أسدلت عَباءتهَا على زَينَب ، كَم كَانت تَتَمنى أَن يَكون لَديهَا بَنت غيرنا كَي تُسَميهَا زَينب لقوتهَا و شَجاعتهَا ، فَكَانت زَينَب مَضرب مَثَل في القُوة ، و كَانت النسوة تُهدد و تتَوعد :

ـ و العَباس إن مَا لَبيت لي حَاجَتي لأرمي روحي بَالبَير مثل مَا رَمت زَينب رُوحهَا بالبير ..

لَقد مَاتت زَينَب ..

و لا زَالت زَينَب في الذَاكرة ، تنتظرُ مُحمداً حتى يَعود من العمَل ، تتهَربُ من مَنزلهَا إلى مَنزلنا ، تَصعدُ الدَرج على حَياء حتى تَصل إلى سَطح البَيت ، تُراقَبُ الأسطُح المُجاورة لسَطحنا ، تتَأملُ شَفق الشَمس كَيفَ يَهوي و يُودعُ السَماء ، و تَهوي بذاتهَا حَيثُ السُور الذي يَفصلُ سَطح بَيتنا عن سَطح جيراننَا ..

مُحمد ، جميلٌ و بَسيطٌ و أنيقٌ جداً ..

تُحبهُ أُمي لأنهُ خَجولٌ جداً ، تَربيةٌ صَالحةٌ و قَلبٌ نَظيف ، تَصعدُ زَينب فَوق حَجرٍ وتُمسكُ بأطراف أصَابعها بالسُور الطَويل الذي بُني من حجرٍ و من طين ، و نَختلسُ السَمع لأصوات الحُب كَيفَ تتَبادَلُ بضَحكها و همسها و لَمسها ..

مَاتت زَينَب و لم يَتزوج مُحمد أبداً ، كُل يَوم يَصعدُ السطح و يَتجسسُ عن أمل يُعيدها إليه ، هُوَ يَعلم بأنها لَن تَعود و هي لم تَعُد تَعلم شَيئاً فقَد غَيبهَا المَوتُ تَحتَ التُراب و فَارقت الأهل و الأحباب و بَعثَر مَلامحها الدُود و أضحت من أهل القُبور ، تُجالسُها أُمها العَجوز مُتَكئة على حَجرٍ كَبيرٍ في كُل

عَصرٍ تَبكي و تَندُبُ و تَلطُم ، أُمٌّ على مَقاس المَال و لكن إن رَحلت العيال فَما فَائدة المَال !! ..

كَانت تُريد أن تَبيعها كبَيعة الكَبش للَجزار نَوى به التَصَدق على الفُقراء ، و لكنَها بَاعت نَفسَها في سَبيل الحُب و الهَوى فما كان من الهَوى إلا أن هَوى فَي بئر مُختنقٍ بالمَاء ، و لكنَ البئر أُغلق بإحكام و أضحت من أحاديث الأحلام يَتسَامرُ بهَا أهل الحَي بَينَ فَينة و فَينة ، عامان من الوداع و كانَ حدَيث النَاس و سَهرهم و سَمرهم قصَة زَينب ، و سُقوطها في غياهب الجُب ، لا أعلم من سَقط هَل زَينب أم مُحمد أم هَذا العالم الذي لا يَحترُم قَرار الحُب و ما يَطوفُ حولهُ العُشَاق .. !! ..

كُنتُ أسير مع أبو حُسَين قَاصداً أبا عبد الله الحُسَين ، أحملُ دَعوات أرفعها إلى الله مُتبركة بصَاحب المَقام متَيمة بأقفاص الزمان ، العَرقُ يَتصَببُ من جَبيني و الماءُ لا يَكادُ يَرويني ، و في أحشاء رَحمي هُناك كَنزٌ دَفين ، يَتضَمخُ و يَسبحُ و يَسرحُ في جَوفي ، مُضغة في شَهرهَا السَابع لعل الله يُريد لهَا قُدسية المكَان و الزَمَان ، لعَلهُ اصطَفى من هَذه الأَيام أَياماً حِسَان ، فَحسنَ رَحمي بأنَ يُنفخَ بهَا سَاعة القَيام،

لم أَعدُ أَشعُرُ بقدمي و لا بالحَصى الذي أَكلَ لحَم كَعبي ، نهَشَتني الشَمسُ بأَلسنة نَارهَا ، و رَفعتُ إلى الله تَعبي لأُنجدَ مَا بَي من أَلم ، و هَزني شُعور السَيلان بَينَ فَخذي ، شَيء يَجري ببرودة ماراً على مسَام جلدي بحركَتهُ الغَير مَنطقية ، إنكمش بطَني فأَكادُ أتقيأُ ، رَائحة صَدى تَفوحُ من عَباءتي ، أَرى الشَارع مَكَاناً للطَواف يَدورُ حَولهُ كُل مَا لا يَعرفُ الدَوران ، أَلتفتُ إلى أَبو حُسَين فأراهُ مَشغولاً بنفسه وقد أَجهدهُ السَير هُوَ الآخر ، أَجهدني الصَبرُ و لم أَعُد أَحتملُ فسَقطتُ في دَوامة كَبيرة تَشدُني نَحوَ السَماء ، و تَسحبُ بي وَحيدة طَريدة يَتيمة ، كَانَ ضَرب الدُفوف يُسمعُ لهُ زَمَجرة ، نسَاءٌ مُخَمرات و مُتَخفيات بالخمَار و النقاب ، عُيون جَميلة بَراقة لهَا صَدَى و لمَعة ، تَهَتزُ النسوة مع اهتَزَاز الدفُوف و أَقفُ تَحتَ ظلي مُندهشة مَا الذي أَحضَرني إلى هُنَا ، لَقد أَتَيتُ إلى هُنَا بغَير إرادتي ، كنتُ أتفقد المَكَان و أَدفعُ النسوة من حَولي كَي أصلَ إلى الدَائرة الرئيسية لحَلقة الرَقص و ضَرب الدُفوف ، ماذا يَحدُثُ هُنَا يا رَباه !! ..

رَأيتُ زَينب بنت الجيران التي سَقطت في البئر حُباً أو انتحاراً تَتَمايلُ كَأنهَا غَزالٌ مُبللٌ بالذَهب ، الشَعرُ أَسود قد

وَصَل إلى وَركَيهَا مَنثُور كَأنهُ بَراكين بَخور ، الخُدود مُتورمة و مُتوردة شَهية لهَا نَشوة القَضَم كَأنهَما مُشمش ذَبلان ، تَهتزُ مَع قَرع الطُبول و تَهبُ و تَشبُ مع صَخب الدُفوف و ارتَفاع الزَغاريد ، الغناءُ يَتصَاعد كُلمَا رَفعت سَاقها نَحو السَماء ، ألفتني صَوت خلخال في قدَميها يَهزُ و يُخشخش معها كُلمَا اقتربتُ منهَا ، كُنتُ مَصدومة بها مَاذا تَفعل هُنَا هَذه الفَتاة ! ..

غَمزتني بَعينها و هي تَلفُ و تَرقُص حَول نَفسها و بَينَ كَومة النسَاء ، سَرقَت لُبي تلكَ النُعومة الدَاكنة المُغَبرة بالأُنوثة الكَاملة ، قلائد تُطوقُ رَقبتها تَبرقُ و تَلمع و تَختفي و تَتلاشَى بين كُل حَركة و غَمزة ، أسَاور من العيَار الثَقيل في معاصمها يُسمعُ لَها خَشيش و نَهيش و قَرقعة و طَرطقة، جُنونٌ ما بَعدهُ جُنونٌ و أجفاني تَأبى أن تُغلق وسَط ذَاك الدُوار الهَائل الذي سَحبني إلى مَكان لا أعرفُهُ ، أصمدُ وَحدي مُستمتعَة بهَذه السَاحة و عَويل الدُفوف و الطُبول ، تَأتيني زَينب من وسط الرُكام تَهتزُ كَأنها خَيلٌ أصَيلة مُفصَلة نَاعمة كَالحَرير ، تُمسكُ بيدي و تَسحبني وَسَط السَاحة و يرتفعُ إيقاعُ الطُبول ، تَسقطُ عباءتي من رَأسي لتَظهرَ

جَدائلي وتَغمُرني بالسَعادة و الخَوف ، مَحفوفة بالحُب و العشق ، قَادتني الأقدارُ للرَقص و للحَياة ، أُفكُ جدائلي ليظهرَ شَعري ، يَتناثر الشَعرُ من الأسفل إلى الأعلى و من الأعلى إلى الأسفل ، هَذه أول مَرة أضَحكُ من كُل قَلبي ، الشَيء الوَحيد الذي تَحررتُ منهُ ، السَواد الدَاكن و القهر الأبوي الطَبقي المُتخلف، أميلُ و أجولُ و أتحركُ و أتحررُ و أُحركُ مَفاصلي الصدئة ، أشعرُ بأنَ الهَواء يَتخللني و يَتداخَلُ معي ، نَدورُ أنا و زَينب معاً و تَرتفع ضَحكاتنَا و أصواتنا و هواجس أُنوثتنا ، أكسر قُيود الأكفان التي خَنقتنا، أكفان العَيب و قُيود العادات و التَقاليد ، سَحبتني زَينب جانباً:

ـ خَرعتيلي قَلبي يُمة شُو جابك لَهنانة !؟ ..

ضَحكت حَتى فَككت أَزرارَ صَمتهَا :

ـ هَذه الجَنة يَا حَبيبتي ..

أَرى الجَنة أُشَاهدُ لُبهَا بعَينَين قَاصرَتين ، تَقرصني بأظافرهَا المَطلية بالحُمرة :

ـ يالله هسه أودعچ أُم حسين ، الله رَاح يَرزقچ بَنَية سَميها زَينب ..

و تَلاشَت الأصوات لأَقع في أصواتٍ أُخرى ..
أَصواتٌ لَيسَت مني ، أَعرفُهَا و لا تَعرفُني ، أَصواتٌ لهَا أَصَابعُ و أَكُف تَتَطايرُ بينَ الحَقيقة و الخَيال ، و بين مَد و زَجر تَختَفي زَينب بابتسَامةٍ يَتَقاطُر منها العسَل ، والعَسَلُ يمَتَزجُ بي و يُبددُ قوَاي ، هَل أَنَا قَوية حَقاً !؟ ..
أتظاهرُ بالقُوة ، و أَحمي نَفسي بعدم الاقتراب من النَاس ، و لكنَ النَاس تُحبني لأنني قد قصَرتُ من لسَاني ، فلسَتُ من الثَرثارات أَبداً ، و لكنَني أَنا أَقعُ و أَغوص إلى الحَقيقة ، أَبو حُسَين صَديق الدَرب أو دَعني أَقولُ لكَ بأنه زَوجي ، أَراهُ أَمَامي يَبتسمُ فأُودعُ الحُلمَ في ابتسَامةٍ وأَستَقبلُ الحَقيقة بابتسَامة ، فَأَنَا مُعَلقة بينَ أَجمل ابتسَامَتَين شَاهَدتهُمَا في يَقظَتي و في مَنَامي ، أَبو حُسَين الذي طَوى سَعَادتي بَرَحيله المُبكر ، الرَجُل المسكين الذي يَبيع الخُضَار في السُوق ، و أَنا اشتَري حُريتي بعد أَن يُودعنَا كُل صَباح ، أَخلو بالدَار يأَكُلني الهمُ مَاذا سَوف أَطهو ، يُلبدني التَعب في كُل غُرفة أَقومُ بَتنظيفهَا حَتى يُطرق البَابُ ذَاتَ ظَهيرة بقوة ، أطيرُ مع الهَواء المُنكمش في زَوَايا الدَار يَسبقني ابني حُسَين حَيثُ الباب :

ـ الحكَوا أَبوكُم بالمَركز الصَحي ..

هُنَا الخَبرُ يَشتَعلُ في الحَي كَمَا يَشتَعلُ النَار في الهَشيم ، أشتَعلُ معهُ أَنا الأُخرى ، مَاذا يَفعل في المَركز الصحي ، من المُؤكَد بأنهُ أُصيب بشَيء ، سَمعتُ بالخَبر فانَكسَرت رُوحي ، إنهُ صَاحب الدَرب و مَكنونَهَا المُخلد في كُل الدَار ، المَرأة تَموتُ قَهراً بعَد مَوت زوجهَا و خُصوصاً إذا كَانَ الرَجُل حَسن الصيت طَيب المعَامَلة ، أَرتَدي عَباءتي على رَأسي و أَجري بكُل مَا أُوتي الخَوفُ من رَهبة ، خَائفةٌ عَليه الآن ، نعم الآن اكتَشفتُ خَوفي عَليه ، الآن أَنا أَبحثُ عن ذَاتي ، الآن أنا لا أُساوي شَيئاً من غَير وُجوده ، الآن أَنا أُريدُ ذَاكَ الزَوج الحَنون ، هُوَ الذي لم يَرفع صَوتهُ عَلي و لكني أَخشَاهُ و أخشَى غَضَبهُ مني ، هُوَ لم يَغضَب البَتة و لكني أَخشَى أن يَغضَب ، رَجُلٌ مسكينٌ يبيع الخُضَار في السُوق ، يَحملُ أحمالهُ من الطمَاطم و البطاطا و الجَزر على حمَاره بَعدَ كُل فَجر و يَسير إلى حَيثُ رزقهُ ، قَصيراً مُنحنياً مُحدودباً عُيونهُ غَائرة من الضَعف و شَفتاهُ كَبيرتَان لا يَغضَب و لا يَجزع و لا يَضَرب ، يُريد الستر من الله و أنَا لا أُريد مُفارقتهُ ..

جَرى حُسَين و جَريتُ خَلفهُ ، لا أَعرف كَيف ارتَدَيتُ عَباءتي على رَأسي ، و تَتَطايرُ كُل شَعري على كَتفي ، لم تَنجو جَدَائلي من الخَوف على زَوجي ، فأَفلتت للهَواء و الخَوف و المُصيبة حَتى وَصَلنَا إلى المَركَز الصحي ، كَانَ مُمَدداً على سَريرٍ أَخضَرٍ و غطائهُ أَبيض ، مُلامحهُ مُبددة من الوَجع ، يَبتلعُ أَلمه بصمت ، يَبتَلعُ أَنفاسهُ كَي لا يُقال عنهُ بأَنَهُ لا يَتَحمل الأَلم ، أَنَا أُنثى لا أَستَطيع أن أَتحمل هَذا المنظر ، كَانت قَدمهُ مَلفوفة بجَبيرة بَيضَاء مُعلقة في السَقف بحَبل أَبيض ، و صَرختُ بأَعلى صَوتي أَبكيه و أَندُبُ زوجي ، أَخَرجَنَا الطَبيب من الغُرفة ، في قَلبه أَحاديث لا تُحكى و لكنهُ يُريد أن يُحَدثنَا بهَا ، في صَدره غَصة و في صُدورنَا أَلف غَصَة ، مُبتلة بالرُعب أَمامهُ أُشَاهدهُ كَيفَ يتَلكأ و يتَصببُ عَرقاً ، و لكن دُموعنا تَنصَبُ من العُيون صَباً :

ـ أَنَا أَريدكُم تَعرفُون أنَ الأَعمار بيد الله ، و الله قادر على كُل شَيء ، و أنتُم نَاس مُؤمنون بقَضاء الله و قدَره ، و أَبو حسَين أَتمنى أَنو يَطلع من هذي المَحنة ، الرجُل مُصَاب بالسَرطَان ..

شَعرتُ بأنَ الكَون يَدورُ حَولي و أَنا أَدورُ بَعكس دوَرانه لم أَتحمل الصَدمة لأَقع مُغمى عَلي ، أَرضاً أَتلوى بكُل أَلم ، و لكن من سيخرجُهُ من هَذا الأَلم الخَبيث !؟ ..

خَبيثة هي الأَقدار عندما لا تَعرفُ طَريقهَا إلى الخَلاص ، و لكنهَا سَرقت ذاَك الرَجُل المسكين في غُضون أَسبوع وَاحد فقط ، بسكتة قَلبية مُباغتة لم يتحمل أن يرى أَهلهُ يتَألمونَ عَليه ، فآلمتنا ذكراهُ و رَحيلهُ و خَرج حُسَين يَعمل مَكَانهُ في السُوق و يَدرُس ، فَي سن الجَامعة يَحملُ الشَابُ هَمَين هَمَ عَائلة و هَم مُستَقبله ، و هَا هي الذاكرة تُعيدني إلى زَينب ، يَحملُهَا بكَفه يَقفُ فَوقَ رَأسي ، لم أَعرف كَيف أتت و لكنهَا أَتت في طَريقهَا إلى أَبي عَبد الله الحُسَين ، كَانت امرأةٌ تغسلُ يَدها أُنثى بينَ الشَباب و الهَرم تَعصبُ رَأسَهَا بعصابة سَوداء وَجههَا كأنه النُور يَتَدفقُ حولهَا ، ابتسَامةٌ لا تُفارقُ وَجههَا ، خَرجت الطفلة ذَات السَبعة أَشَهرُ سَليمة مُعافاة من بَطني ، أَرادَ اللهُ لهَا ولادَة قَريبة لأَن الحَياة قَصيرة ، قَصيرة جداً ، و لكنهَا جَميلة كسحابة حب :

ـ مَبارك أُم حسين جَتچ بنية مثل الكُمر ..

تَمسحُ تلكَ المَرأة يَدهَا بمنشَفة بُرتقالية ، يَظهَرُ على مَعاصمهَا أَساور من ذَهب خَالص ، و عدة خَواتم رُبمَا جَنتهَا من الولادة أو من إرث قَديم أو اللهُ أَعلم :

ـ رَبي يَبارك فيك أَبو حسين ..

ـ مَا تريدين تشوفيهَا !؟ ..

تَقفُ المَرأَة فَوق رَأسي تَسُد نُور المصباح الذَي يُجَاور الجدار ، ، وَتمسَحُ وَجهي المُبتل بالعَرق ، قدَ بَدلت ثيابي و لكن قَلبي يَكسوهُ ثَوب وَاحد فقط ، تَتَدخَلُ بصوتهَا الحَنون :

ـ خَيتي شُنو تريدين تسميهَا ..

كَانت الطفلة صَامتة جداً ، أَحملهُا أَضَعها على صَدري ، أَشعُرُ بحرارة بَشرتهَا ، أشعُر بعُروقهَا النَاعمة كَيفَ يَسير بهَا دَمُ المَاضي و نُور المُستَقبل ، أُشَاهدُ صَمتهَا و نَفسهَا كَيفَ يَجتاحُ مَسَامَات جلدي :

ـ أَريد أَسميهَا زَينب ..

ضَحكت تلكَ الدَاية على الاسم ، و أَكلمت الأَقدارُ حياكة الحكاية لتقول :

ـ على اَسمي رَبي يَحفظهَا ، مباركة عَليكُم البنية ..

كَبُرت زَينَب و حصَلت على هَندَسة الآبار النفطية ، و كَبُر الجمَيع و جَميعُهم سَافر ..

أنَا على سَفرٍ أَحملُ حَقائب الذَاكَرة ..
جَالسةً على مَحَطة الانتظار أُراقبُ العَائدين من رَحم السنين ، مُسننة الذَاكرة بضحكَاتهم ، تُبَاغتني أصواتهم ، خَالية الدَارُ منهُم و خَاوي قلبي كَبئر مُعطَلة و قَصَر مشيد ، عُكَازَتي وَحدهَا تَعرفُ أَين المَسير ، بل أَينَ الذَاكرة ! ..
الذَاكرة مُحتلة من قبل حُسَين و كَاظم و فاطَمة و زَينب ، قد اجتَاحهَا أَبو حُسَين بشَاهدةِ قَبرهِ بكُل زَيارة إلى ضَريحه ، أُعمدُ صَمتي بالصُور المُعَلقة على جُدران البيت ، و أبكي كَي لا يَسمعني السُكون ، أَخشَى أن أَكونَ ضَعيفة فَلا أُريد المَوت وَحيدة جَاثية على أَعتاب الانتظَار أُراقب المُسير و العَائد و أستقصي أَخبارَهُم من هَذا و ذَاك ، أتراهُم خَانُوا أُمهم و هربوا ، أَنا التي أَطرُد الشَك بعُكازي و أقتلُ صَدى الرَيب :
ـ أَمشي من هَنا ولادي مَا يخُونوني ..
أَفلتُوا يدَي في الوَقت الذي أنَا بأَمس الحَاجة لهُم ، كَانوا يَبكون و لكني لم أَعلم بأن الدُموع تَكذب ، و أَطرُد الرَيب مَرة أُخرى و أَهشُمهُ بحجر قَاصدةً طَرد وسواسه :
ـ أَمشي من هَنانة ولادي مَا يَكذبون أَنا مربيتهُم زَين .

و أَتَكئُ على مَا تَبقى من قواي ، أُريدُ كَفَ كَاظم و لمَسَةَ حُسَين و حُضنَ فَاطمة و حَنَان زَينَب و طيبة أَبو حُسَين ، أُريد أَن نَجلس معاً حَولَ مَائدة الغَداء ، و يَرتَفعُ صَوتَنا ضَحكاً على ما يَجري في الحَي ، أُريد أَن يُطرقَ بَابي و تَأتيني سُلطَانة أُم عُمر و تُضحكني بحَركَاتهَا ، أُريد أن أرى كُتبهُم مُتناثرة هُنَا و هُنَاك و أُرتبهَا بَصوت عَال و أصرخُ بأَعلى صَوتي :

ـ تَعالوا شيلو كُتبكُم جَاينَا خُطَار ..

أُريدُ أَن أَرى عنَادهُم يتَربص بهم و يَستَحكمُ في أعصَابهم و يَتعبونَ و يَكدون ، يَتهامسونَ فيمَا بَينهم و يُخططونَ ماذا سَيفعلونَ يومَ غد ..

أُريد أَن أَستمع لصَوت فَاطمة و هي تَقول :

ـ يا امي يَا أُم الوفا ..

و إلى صَوت زَينَب و هي تَقول :

ـ تَريدين عُيوني أَعطيچ ياهَا يَمَّة ..

و اَلى صَوت حُسَين و هُوَ يَقول :

ـ فَدوة لقلبچ يُمَّة ..

و إلى صَوت كَاظم و هُوَ يَقول :

- رُوحي يَا حنينة ..

و إلى صَوت أَبو حُسَين و هُوَ يَقول :

- ربي مَا يَحرمني منچ يَا طَيبة ..

أُمنَيات لم تَكُن ، أُمنيات أَنجبتهَا لي الوَحدة و مُجَاورة الجُدران و مُصَاحبة الغُرف الفَارغة ، كُل لَيلة أَبيتُ في سَرير مُختَلف ، أَشتَم به روَائحهم كَي أَبقى على قَيد الحَياة ، و لكن الحَياة قَاسية جداً عندما تَسرقنا منهُم و من وُجودهم ، هَا هي الشَمس تُريد أَن تَغيب ، أَشعرُ بأَنَني سَوفَ أَغيبُ مَعَها حَيثُ الوَداع و لكنَ الله رَحيم يُسمعني طَرقَ البَاب ، أرفع صَوتي :

- يا الله جَايه ..

في صَدري حَديث النسَاء الفارغات أَقول في قعر قلبي : منهو جاي هسه !! ..

أفتحُ البَاب ، أَكادُ لا أُصَدق ، إنهُم هُم جَميعاً وَاقفونَ أَمَامي فاطمة و أولادهَا ، و زَينَب و أَولادهَا ، و حُسَين و أولادهُ ، و كَاظم و أَولادهُ ..

الدَهشَة أَفقدتني أَعصَابي ، أكَادُ أن أَقع أَرضاً ، و لكن أَمسَكُوا بي جَميعاً و احتضوني أَمامَ البَوابة حُضن الشَوق

للعشق ، إنهُم هُم أَتوا من السَفر من بُلدان الاغتراب ، اَتفقوا أمَامَ الله أَن يَعودوا إلى أُمهم العَجوز إلى وَطنهم و تَرُابهم إلى عَريشَتهم و سَطحهم إلى أَسرتهم و كُتبهم إليَّ أنَا المُشتَاقة لهم ..

أنَا لستُ خَالية .. أنا الآن غَارقة بهم ..

أنَا الأُم العراقية ..

أَنا الوَطن .

أنَا .

أتمَمتُ رواية :

خَالية

في بَلَد الحُرية و الديمُقرَاطية : النَمسا ، في عَاصمَة البيانو و الكَمنجَة :

فيينا ، مع كُل مُغترب عن العَراق ، في المَكتبة الوَطنَية

السَاعة : 30: 01 .. ظُهراً

من تَاريخ : 10 / يونيو / 2018.